سلسلة تصحيح المفاهيم

١٠

سؤال الهُويَّة

هُويَّتنا الإسلاميــة

فى مفترق الطرق

تأليف

أ.د/ محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

قامت ثورة الشعب المصرى فى ٢٥ يناير ٢٠١١م، وفاجأت العالم بمظهر حضارى كان مثار الحديث بالإعجاب لروعة المشهد الثورى الذى اكتظت به شوارع مصر من شمالها إلى جنوبها، وأكثر ما كان ذلك وضوحًا وإعجابًا ما عبَّرت عنه الجماهير فى ميدان التحرير فى القاهرة من سلوك حضارى يدل على وحدة نسيج الشعب المصرى.

ولكن المفاجأة التى أدهشت المحللين السياسيين ذلك المخزون الحضارى والدينى الذى يتمتع به شعب مصر المسلم فيه والمسيحى. والذى أعلن عن نفسه فى الميادين المختلفة فى محافظات مصر كلها، وحدة الكلمة، وحدة الهدف، وحدة الصف، وحدة الشعارات، ثم كانت المفاجأة الأكبر التى حيرت المحللين السياسيين ذلك الرصيد الدينى الذى كان مكبوتًا فى صدور الناس بسبب التسلط والقهر الذى مارسته السلطة على الشعب خلال عقود طويلة، وبمجرد أن سمحت الظروف بالتعبير عن ذلك الرصيد المخزون من التدين انطلق الشعب يعبر عن نفسه وعن اعتزازه بدينه وإيمانه بعقيدته وأمله فى مستقبله، وكان ذلك واضحًا فى اختيار الشعب لأعضاء

مجلسى الشعب والشورى من التيارات الإسلامية سواء كانوا من الإخوان أو السلفيين أو غيرهم. وهذا لم يكن غريبًا على الشعب المصرى المتدين بفطرته، فالمسلم والنصرانى فى مصر لا مدخل لإصلاحهما إلا من باب الدين والتدين، ولكن هذا السلوك الحضارى أثار حفيظة العلمانيين فى مصر، فأقاموا الدنيا ولم يقعدوها إلى الآن، وأخذوا يستأثرون بأجهزة الإعلام، وأعلنوها حربًا لا هوادة فيها لتشويه كل ما هو إسلامى، فالدولة الإسلامية عندهم تسلطية، رجعية، متخلفة ... إلى غير ذلك من هذه الألفاظ المنفرة من كل ما هو إسلامى. وبدأوا يطرحون البديل عن الدولة الإسلامية.

قالوا: نريد مصر دولة ليبرالية، نريدها دولة علمانية، نريدها دولة مدنية. أما أن تكون دولتنا إسلامية فهذا دونه خرط القتاد، وهذا قد جسده أحد المرشحين لرئاسة الدولة أخيرًا حين صرَّح فى المؤتمر الصحفى بقوله: "لن أسمح أبدًا بأسلمة المجتمع المصرى" ليسترضى بذلك أمريكا والغرب .. أو .. أو.

وأخذت هذه الأصوات تتبادل مواقعها عبر شاشات التلفاز تتحدث عن العلمانية ومحاسنها وعن الدولة الإسلامية ومساوئها، وبدا الأمر وكأنهم قد تواصوا فيما بينهم وبإصرار عجيب على إثارة هذه المشكلة.

فالأشخاص هى نفس الأشخاص.

والكلمات المستعملة هى نفس الكلمات.

والمنهج هو نفس المنهج، الترهيب والتخويف من كل ما هو إسلامى؛ لأن الإسلام عندهم قرين الإرهاب والتطرف والتخلف والعودة إلى حياة البداوة

وعقلية الصحراء، وكأنهم يتحدثون بهذه اللغة الإرهابية نيابة عن أمريكا أو فرنسا. والذى يلفت النظر أنهم يتحدثون فى هذه القضية باسم شعب مصر ومستقبل مصر، وكأن الشعب قد أعطاهم تفويضًا مكتوبًا أن يتحدثوا باسمه، ويرسموا له مستقبله، كما يريدون ، وليس كما يريد هو.

ونسى هؤلاء أن القرار هنا هو قرار الشعب وليس قرار هذه الأصوات التى دأبت على إثارة البلبلة والتشكيك فى كل شيء حتى فى نوايا الناس ترويجًا لمذهبهم الفكرى ودعوة إلى الأيديولوجية السياسية التى يسعون لتحقيقها واقعًا فى مصر.

والقصد من هذه الدراسة الموجزة أن نزيل اللبس بتصحيح المفاهيم الحقيقية لهذه المصطلحات التى يدعون إليها وينادون بتطبيقها فى مصر، وبيان موقفها الرافض لكل ما هو دينى، وأن العمل والتشنيع على تزييف وعى الأمة وتغييبه عن الإحساس بهويتها الحضارية والثقافية هدف منشود لهؤلاء منذ مطلع القرن العشرين ومازال الصراع قائمًا إلى الآن.

إن الضجيج الإعلامى الذى يقوم به هذه القلة حلقة فى سلسلة طويلة يقصد منها تزييف الوعى أو تغييبه بالكلية، الوعى بالهوية الإسلامية وخصائصها الحضارية الماثلة فى:

١- هويتها العقائدية.

٢- هويتها الأخلاقية وارتباطها بالعقيدة.

٣- هويتها الفلسفية فى نظرتها للإنسان، والوجود، والوظائف الكونية لكل منهما.

وهذا ما حرصت على بيانه فى هذه الورقة بإيجاز، أرجو ألا يكون مخلًا، وأعترف بأنه جاء على عجل؛ لأنه ابن اللحظة الراهنة. فليغفر لى القارئ ما يجده من هنات أو تقصير. والله من وراء القصد وهو حسبى ونعم الوكيل.

المؤلف

٢٠١٢/٣/٢٨

سؤال الهُويَّــة(*)

قامت الثورة الشعبية فى مصر ٢٥يناير ٢٠١١م، فغيرت وجه الحياة فى مصر وحركت الشارع العربى كله متسائلاً فى دهشة وإعجاب عن ماهية هذه الثورة وما أبعادها السياسية والاجتماعية؟ وما آثارها على المنطقة العربية المحيطة بها؟ خاصة أن مصر بتاريخها الطويل تملك مفاتيح التأثير فى المنطقة بشكل مباشر أحيانًا وغير مباشر أحيانًا أخرى، ولا شك أن هذه الثورة قد أحدثت ردود أفعال متباينة فى المنطقة، فهناك من بادرَ بالاستنكار ورفع سلاح القطيعة وهدد بطرد العمالة المصرية، وهناك من تحفظ والتمس الصمت على خوف من عدوى التأثير، أما فى داخل الشارع المصرى فكانت علامات الفرح والسرور والتفاؤل بمستقبل أفضل. وبارك الشعب المصرى بكل فئاته هذه الثورة المباركة التى كسرت حاجز الخوف الذى كان يسيطر على الناس، وفتحت أمام الجميع أبواب المستقبل الذى يتنفس فيه الإنسان نسمات الحرية، وقضت على حالة الانكسار النفسى التى سيطرت على الشباب، وأخذت وسائل الإعلام تبث فى النفوس آمالها بمستقبل واعد، يحس الإنسان فيه بكرامته التى كانت مفتقدة، ويباشر حياته وحقه فى

(*) انظر: المعجم الفلسفى: ط مجمع اللغة العربية، مادة: فلسفة الهوية؛ الهوية حيث نقول هوية الشيء حقيقته، ما به يتميز الشيء عن غير، هى الصفات الذاتية التى يختص بها الشيء دون غيره، وهى الخصوصيات المميزة، الذاتيات.

التعبير بحرية كاملة وفى إبداء الرأى وفى النقد والمراجعة بعد أن عاش فترة طويلة مكمم الأفواه مسلوب الإرادة ومغيب الوعى، وسيطر هذا الجو من الفرح والسرور بهذه الثورة، وعاشت مصر فترة من التاريخ لم تعشها من قبل.

***

ثم بدأت مرحلة التفكير فى المستقبل الذى تنتظره هذه الثورة، وبدأ التحليل السياسى للنهوض بمصر ومستقبلها، وما هو الطريق الصحيح الذى ينبغى أن تسلكه الثورة للخروج بالبلد من فترة الغليان الثورى إلى مرحلة الهدوء والتفكير الآمن من الخوف وبدأ التفكير فى مشروع النهضة الذى تتبناه الثورة، كمنهج عمل قابل للتطبيق على أرض الواقع، وبدأت النخبة كلٌّ يرسم لنفسه معالم الطريق الذى يفضل السير فيه كمنهج عمل له أو للحزب الذى ينتمى إليه إن كان حزبيًا، ولا شك أن الرؤى سوف تتعدد، والاجتهادات سوف تتباين، والمواقف سوف تتعارض حسب هذه الاجتهادات. وهذا أمر طبيعى ونحن من جانبنا نعتبره ظاهرة صحية تحتاج إلى التشجيع مادامت تصب كلها فى البحث عن طريق آمن وعن منهج علمى للأخذ به فى طريق النهضة. وهذا شأن كل الثورات الوطنية، فلا بد أن يتلوها فترة من إعمال العقل وإجهاد الذهن بحثًا عن منهج علمى تنهض به الأوطان سياسيًا وعلميًا واجتماعيًا واقتصاديًا. وهذا الدور هو ما يجب أن ينهض به أبناء الأمة من الذين يحملون همومها ويتقربون إلى الله بالعمل فى سبيل نهضتها وإسعاد أبنائها.

***

ولا شك أن الأمة المصرية تملك من الثوابت والقيم الأصيلة الراسخة

فى تراثها والمعبرة عن خصوصيتها ما لا يحتاج إلى اجتهاد ولا إعمال ذهن، ولم تكن هذه الثوابت فى يوم من الأيام محل خلاف بين أبنائها سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا.

وهذه الثوابت التاريخية ليست فى حاجة إلى نقاش أو حوار بين القبول لها أو الرفض؛ لأنها تشكل معالم أسياسية لهوية مصر.

وذلك مثل النص فى الدستور المصرى على أن مصر دولة مسلمة، لغتها العربية، دينها الإسلام، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للدستور والقوانين، وإن انتماءها عربى إفريقى ...

والذى لفت الأنظار وأثار الدهشة أن بعض المنتسبين إلى النخبة تجاوز ما ينبغى أن يشغل المفكرون الوطنيون أنفسهم به من البحث عن أفضل الطرق لنهضة مصر سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا إلى التساؤل بل والتشكيك فى هُويَّة مصر، والتشكيك فى ما هو ثابت ومستقر فى ضمير الأمة ومحاولة الزج به فى ساحات الحوار السياسى: هل مصر بلد (علمانى أو ليبرلى أو هى دولة دينة أو مدنية)، وبدأ بعض العلمانيين يردد نفس الأسئلة فى الندوات وفى الصحف، وأحيانًا يلبسون هذه الأسئلة بعض المحاذير السياسية المنفرة، ويقولون: لا نريدها دولة دينية إرهابية خوفًا من الفتنة الطائفية، وأحيانًا يسوقون الأسئلة فى أسلوب من الترهيب والتنفير، ويقولون: لا نريدها دولة (ملالى) على غرار دولة الشيعة فى إيران، وراحوا يتلمّسون كل وسائل الترهيب والتنفير والتخوين من كل صوت يوضح لهم أن مصر ليست دولة دينية ولن تكون كذلك. لكنها أيضًا ليست دولة علمانية ولا ليبرالية، إنها مصر الدولة المسلمة.

تعالت الأصوات التى طرحت السؤال وارتفعت نبرتها عبر شاشات التلفاز وأخذت تدعو إلى طرحها على الناس لتجد لها من يؤيدها، ويقف إلى جانبها بصورة تدعو إلى التساؤل عما وراء هذه الأصوات وما أهدافها من إثارة هذه القضية؟ ولماذا الآن؟ ولماذا فى وقت نجد فيه البعض يستقوى بأمريكا وبالغرب؛ لكى يستنصر بهما على تنفيذ رغباته التى يرفضها الشعب المصرى المسلم فيه والمسيحى. ثم لماذا تثار هذه القضية ونحن فى مفترق الطرق، نودع ماضيًا كان مبدؤه العمل على شق الصف وتمزيق الأمة ونأمل فى مستقبل آمن نجمع فيه كلمتنا ونوحِّد صفوفنا، وتتوحد فيه إرادتنا؛ لأن القوة فى الجماعة، والضعف قرين الفرقة والتشرذم.

إن من يتتبع تاريخ الحركة الوطنية فى مصر من خلال القرنين التاسع عشر والعشرين يجد أن هناك – خاصة فى وقت الأزمات التى تمر بها مصر – من يرفع هذا الصوت النشاز مشككًا فى هوية مصر، هل مصر عربية أو فرعونية، هل مصر إسلامية أو علمانية، بهدف إثارة الفتنة الطائفية بين نسيج الأمة المسلم والمسيحى؛ ليشعلوها نارًا يصلى الوطن بلظاها. وإذا سألت الواحد منهم عن الهدف من إثارة هذه الأسئلة المشككة فى هوية الأمة الآن؟ يقولون لك: خوفًا من الفتنة الطائفية. ونسوا أنهم بذلك قد سقطوا فى مستنقع الفتنة، ويريدون أن يقودوا بلادهم إلى نفس المستنقع الذى نسأل الله أن يحفظ الوطن من الوقوع فيه ومن الذين يحاولون أن يقودوه إلى هذا المستنقع!

إن الذى يتابع هذه الأصوات منذ عقود طويلة يلاحظ أنها هى هى.

نفس الأصوات. نفس الوجوه. نفس الكلمات. نفس المعجم اللغوى فى الصحف. فى الإعلام المرئى حتى باتت ألفاظهم محفوظة ومعجمهم اللغوى مقروء، ومع ذلك فلم يملوا من إثارة هذه الأسئلة التى تنبئ عن سوء النية والعمل على عدم استقرار هذا الوطن.

لقد بدأت حملة التشكيك فى كل ما هو إسلامى على يد المستشرقين، وكان من أخطرها التشكيك فى الهوية المصرية، وهل هوية مصر عربية إسلامية أو فرعونية تابعة لحضارة البحر الأبيض المتوسط، كما أشار إلى ذلك طه حسين فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر، ولم تخل حملة التشكيك هذه من النيل من القرآن الكريم وكذلك السنة المطهرة، ولم تنجُ منها اللغة العربية وكل هذه تعتبر عناصر أسياسية فى تشكيل الثقافة الإسلامية، وبالتالى هى نفس العناصر الرئيسة فى تشكيل وجدان المواطن المصرى وتكوينه الثقافى، وتعددت وسائل التشكيك فى عصرنا الحاضر، وتنوعت مع تعدد وسائل الإعلام وتنوع عوامل التأثير فى الشخصية المصرية، ومحاولة تزييف الوعى الإسلامى أو تغييبه بالكلية كما يحاول البعض أن يحوم حول ذلك الهدف.

ولقد أفرزت هذه الحملة فى المحيط العربى من تبنى الدعوة إليها والالتفاف حولها نيابة عن المستشرقين بالترغيب أحيانًا والترهيب أحيانًا، ولو تتبع المرء الجهود التى يقوم بها هؤلاء – خاصة فى الفترة الراهنة وبعد الثورة المباركة فى ٢٥ يناير ٢٠١٢م – سوف يلاحظ تكثيف الجهود الإعلامية والتركيز بصفة خاصة على علمانية مصر أو الدولة المدنية أو الليبرالية،

والرفض المطلق لكل دعوة بأن مصر دولة إسلامية[1] تحت ستار كثيف من المصطلحات والأيديولوجيات التى يخدعون بها الشباب الطاهر الذى كان اعتبروه فرصة سانحة لتبنى هذه الأفكار دون علم بالمفاهيم الغربية التى تسكن هذه المصطلحات، والتى تحمل معها تزييفًا لوعى الأمة وتزويرًا له أحيانًا؛ لأن المقصد المطلوب والغاية المرجوة هو تغييب الوعى بالذات الإسلامية وتذويبها فى ثقافة الآخر وخصوصيته، وفى هذا طمس للهُوية ونفى للخصوصية.

إن سؤال الهوية الذى يطرحه بعض الكُتَّاب فى هذه المرحلة من تاريخ مصر، خاصة بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م يثير كثيرًا من الشكوك حول الغاية من طرح السؤال الآن كما سبق أن أشرنا إلى ذلك. وهذا ما دعانا إلى أن نقدم بهذه الكلمة بين يدى هذا الموضوع لنبين أن سؤال الهوية يعنى السؤال عن الخصائص التى تميز الحضارات والثقافات الخاصة بكل شعب، هو سؤال عن الوعى بالذات الثقافية والحضارية التى يعتز بها الأفراد ويدينون بالولاء لها والتشبث بها والافتخار بها بين الأمم والدفاع عنها بالقلم والسيف إذا لزم الأمر.

هو سؤال عن مكونات الثقافة الاجتماعية ومفردات الأخلاق المؤثرة فى سلوك الفرد والجماعة.

---

(١) على المرء أن يراجع ما يكتب فى يوميات الأهرام لأشخاص بعينهم حول مستقبل الدولة المصرية وعن الدستور، وما تقوم به القنوات الفضائية من استضافة لأشخاص بعينهم، وهم نفس الأشخاص الذين نقرأ لهم فى الصحف السيارة، وكأنهم تواصوا فيما بينهم بتبنى هذه الحملة والدعوة إلى النيل والتشنيع على كل ما هو إسلامى والترهيب منه، والترغيب والفخر بكل ما هو علمانى أو ليبرالى لا دينى.

هو سؤال عن فلسفة الحكم وغاياته ومقاصد النظرية السياسية الحاكمة لحركة المجتمع وعلاقة الحاكم برعيته.

هو سؤال عن مكونات الفكر الاجتماعى الضابط لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، علاقة الغنى بالفقير، علاقة القوى بالضعيف، علاقة المالك بالأجير.

هو سؤال عن الضابط الجامع لكل عناصر الحركة فى الحياة اليومية ومقوماتها العقائدية والأخلاقية التى تتباين فيها الشعوب وتتمايز الحضارات فيما بينها، وتتجلى فى سلوك الأفراد وعلاقاتهم ببعض وفى علاقاتهم بالكون وما فيه، وفوق ذلك كله تتجلى فى علاقات المجتمع بالله على مستوى السلوك الفردى والجماعى وعلى مستوى الدساتير والقوانين الفاعلة، كما تتجلى هذه الخصوصيات أحيانًا فى لباس معين تعتز به الأمم والشعوب، وأحيانًا فى الطقوس والشعائر التى يمارسونها فى عباداتهم، فأنت إذا رأيت مواطنًا هنديًا يلبس على رأسه عمامة ذات شكل معين تتميز بها طائفة السيخ تعرف أنه من الهنود السيخ وليس من غيرهم لاعتزازهم بهذا اللباس المميز لهم. وكذلك تمايز الشعوب فيما بينها باللغات واللسان، كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾** ﴾ [الروم: ٢٢] فإذا سمعت إنسانًا يتحدث فى حياته اليومية باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الأردية تعلم أن ذلك دليل على ثقافته التى ينتمى إليها. ومن المعلوم أن كل أمة تعتز بلسانها وتقدس لغتها فى المحافل والمؤتمرات وأجهزة الإعلام ولا تقبل أن تتنازل عنها، بل إن الاستعمار

الغربي يحاول كثيرًا أن يفرض لغته على الشعوب المغلوبة، كمدخل اجتماعى لغرز الانتماء وزرع الولاء له بين أبناء الشعوب المغلوبة.

وقد تظهر هذه الخصوصية فى طريقة التحية وتبادلها بين الأصدقاء، أذكر أننى كنت فى طريقنا لمؤتمر مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا المنعقد فى كندا سنة ٢٠٠٨م، وكان معى العالم الجليل الشيخ أحمد الريان من علماء الأزهر الشريف، ونزلنا بمطار لندن ونحن فى طريقنا إلى كندا، وأردنا أن نصلى الظهر، وحاولنا أن نسأل عن مكان يصلح للصلاة بعيدًا عن الزحام؛ لأن وقت الانتظار كان طويلًا، واقترح الشيخ/ أحمد الريان أن نتوجه إلى العمال الموجودين بالمطار ونحييهم بتحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فقد يكون بينهم مسلم يفهم عنا ما نقول ويرشدنا إلى مكان يصلح للصلاة، وتقدمنا نحو مجموعة من عمال النظافة وخاطبناهم بتحية الإسلام، فابتسم أحدهم ورد علينا التحية باللغة العربية الفصحى قائلًا: وعليكم سلام الله ورحمته وبركاته. فاتجهنا نحوه وصافحناه وسعدنا بذلك جدًا. وبادرنا الرجل قائلًا: أنا اسمى عثمان من الصومال. فعرفنا من ذلك أنه مسلم يتكلم العربية.

والمقصود من ذلك أن سؤال الهوية له أمارات تدل عليه وله خصائص يعتز بها كل فرد، ويحاول أن يعلن عنها عندما تقتضى الحاجة ذلك.

الهوية (الدلالة والمفهوم):

يدل مصطلح الهُوّية (بضم الهاء وكسر الواو) على حقيقة الشيء وخصائصه الذاتية التى لا يكون إلا بها، والمصطلح مأخوذ من قولهم (الشيء

هو هو) تعبيرًا عن مكوناته وعناصره الذاتية التى لا يكون هو هو إلا بها. وهذه الخصائص لا يشاركه فيها غيره، بحيث تكون هى المميزة للشيء عما عداه، وغالبًا ما تطلق على الخصائص والصفات المعنوية المميزة لهذا الشيء، ويسأل عنها (بمن) التى يجاب عنها بذكر الذاتيات المميزة وليس العرضيات المشتركة مع الغير.

تأسيس الهوية بمكة:

ولقد ظل الرسول ﷺ ثلاثة عشر عامًا فى مكة يعمل على صياغة الإنسان على نحو جديد مختلف تمامًا عما كان عليه فى الجاهلية، صياغة جديدة فى العادات والتقاليد والأعراف، صياغة تستظل بنور العقيدة الإسلامية التى تدور رحاها حول قطب التوحيد الذى منه تبدأ حركتها وإليه تعود، وينزل القرآن الكريم لتصحيح عقائد الجاهلية لتحمل الأمة شعلة التوحيد إلى العالم كله، إنه صياغة جديدة لنظرة الإنسان إلى الوجود كله ووظيفة الإنسان فى هذا الكون، وعلاقته به ومسئوليته عنه، تعميرًا له وانتفاعًا به، ونظرًا وتأملًا فيه، واكتشافًا لقوانينه، وتوظيفًا لهذه القوانين، إنها بعبارة مجملة مسئولية جديدة تمامًا يواجهها الإنسان المكى حامل عبء الرسالة إلى العالم كله بما تشتمل عليه هذه الرسالة من أسئلة يضعها القرآن المكى أمام الإنسان خلال تأمله فى هذا الكون. من نحن، ما وظيفتنا، من خلق...؟ ولماذا خلق...؟ ومن يمسك الحياة على المخلوق؟ من أحكم القوانين الحاكمة...؟ من جعل الأسباب فاعلة فى المسببات...؟ ومن ربط المسببات بالأسباب...؟ من أتقن الصنعة وأحكمها ...؟ من بيده أمر الوجود والعدم فى البدء والنهاية ...؟

كل هذه الأسئلة يطرحها القرآن المكى على المسلم ليؤسس بها ويؤسس عليها البناء العقيدى للمسلم باعتبار هذا الاعتقاد أخص خصوصيات الهوية للمسلم على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة، إنه أساس البناء، وهو جذع الشجرة المباركة التى تتفرع منها أغصان الخصوصيات الذاتية فى الأخلاق، فى البناء الحضارى، فى النظرة إلى الوجود بدأً ونهايةً، فى العلاقات الاجتماعية، فى علاقة الحاكم بالرعية، وكما أن الشجرة لا تكتمل فائدتها، ولا تنضج ثمرتها إلا باكتمال فروعها وأغصانها، بل وأوراقها، فكذلك الأمر بالنسبة للعقيدة الإسلامية وشجرتها المباركة لا يكتمل نضجها، ولا يستوى عودها إلا باكتمال فروعها وأغصانها وظلال أوراقها من الفرائض والسنن والمندوبات واجتناب المحرمات والمكروهات وحسن التعامل معها، والتعامل بها مع النفس ومع المجتمع ومع الكون كله لتكتمل بذلك أركان وظيفة الإنسان ومسئوليته عن هذا الكون.

لقد كان تأسيس هذه الهوية العقيدية التوحيدية قطب الرحى للقرآن المكى، فلقد أحكم البناء بالآيات البينات والدلائل الواضحة وبكل البراهين اليقينية التى تنير للعقل الطريق إلى الإيمان الذى لا يخالجه الشك بالتوحيد المطلق كأساس يقينى للعلاقة بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، ثم جاءت الهجرة المباركة إلى المدينة المنورة ليكتمل البناء التشريعى الذى يمثل فروع شجرة التوحيد وأغصانها، فكان القرآن المدنى ينزل بالأوامر والنواهى التى جسدت الأحكام الشرعية من الفرائض والنوافل، ثم النواهى عن المحرمات، وكانت السنة النبوية المطهرة تجسيدًا لذلك كله سلوكًا وتطبيقًا بين

جيل الصحابة ليكتمل بذلك بناء الهوية العقائدية بأركانها وفروعها، ونزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

ولذلك فإن أساس هوية المسلم أنه صاحب (عقيدة) والأمة التى ينتمى إليها الفرد المسلم هى أمة (عقيدة) يتفرع عنها، ويتفرع منها أركان هويته ومكوناتها التى تشكل شجرة هذه العقيدة، وتحمل أركان هذه الهوية، والمكونات الثقافية والعلاقات الاجتماعية، والمكونات السياسية، إنها كلها تتصل جذورها بالعقيدة أمرًا ونهيًا وتنظيمًا وسلوكًا، وتنتهى إلى العقيدة وفاء بها والتزامًا بآدابها وتطبيقًا لمفرداتها على مستوى العلاقات المتنوعة بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين الكون، إن أدبيات الفرد المسلم ترتبط بهذه الشجرة العقدية، بداية ونهاية تجسيدًا لخصوصيته وهويته التى ينفرد بها إيمانًا واعتقادًا والتزامًا. وتلك خاصية الهوية والأساس لها التى إذا سئل عنها المسلم أجاب: نعم هويتى أننى مسلم صاحب عقيدة، ومن منطلق عقيدتى تتفرع وتتأسس المبادئ التى تشكل وتنظم علاقته بالآخرين، وإذا سئل عنها حاكم الدولة أجاب: نعم، أنا حاكم مسلم لأمة مسلمة.

* * *

ولا ننسى أن هذا الأساس العقدى قد صوَّب الاستعمار نحوه كثيرًا من عوامل الهدم وسهام التشكيك وإثارة الشبهات بهدف تغييب الوعى به أحيانًا، وتزييفه أحيانًا، وأخيرًا يلجأ الآن لتزوير الوعى به لدى الفرد والمجتمع على سواء. ولا يغيب عن القارئ الكريم الشبهات التى أثارها

المستشرقون حول القرآن الكريم المصدر الأساسى لعقيدة المسلم وهويته التى يعتز بها، وكم من الشكوك التى طرحها على القارئ المسلم حول القرآن ومصدره، وأنه بشرى المصدر وليس من عند الله وإنما هو من عند محمد ﷺ، وأحيانًا يردد هؤلاء نفس الأكاذيب التى رددها المشركون قديمًا حول الرسول ورسالته. ولقد سجل القرآن هذه الأكاذيب وأمرنا أن نتلوها صباحًا ومساءً، ونتقرب إلى الله بتلاوتها دليلًا على صدق البلاغ وأمانة المبلغ؛ إذ لو كان القرآن من عند محمد ﷺ لما جاءت به هذه الأكاذيب وما تلاها صلى الله عليه وسلم وكان من الأولى أن يأتى بشهادات تؤيد صدقه بدلًا من أكاذيب المشركين وافتراءاتهم.

نعم. إن التشكيك فى هوية الوطن قضية قديمة تتجدد مع كل أزمة يعيشها المجتمع، وكأن هناك من يتربص بالأمة ويترصد حالات النوازل التى تقع فى المجتمع، فيشغل بها الأمة تشويشًا وتزييفًا لوعى الأمة بهويتها. وما أكثر ما تنشره الصحف السيارة – خاصة صحيفة الأهرام – وما يطرح على الشاشات المرئية من تشويش لأصحاب المذهبية المستوردة. ولعل ما صرح به سلامة موسى فى كتابه (ما هى النهضة) فى مطلع القرآن العشرين ما زال يتكرر الآن عبر الإعلام المرئى والمقروء بأساليب وطرق مختلفة، وكلها تعمل على تغييب وعى المسلم بذاتيته وتزوير وعيه بهويته ... وتلك قضية يعتبرها أصحاب هذه التوجهات نتيجة مهمة وخطيرة يحرصون عليها ويعملون على شيوعها بين الشباب؛ لأنها تمثل مرحلة من مراحل العمل المنهجى لفقدان المسلم إحساسه بهذه الهوية وتغييبه عنها وإحلال البديل المعد سلفًا مكانها.

فنجد الآن من ينادى بالبديل عن الهوية الإسلامية (كالعلمانية والفرعونية والليبرالية، والدولة المدنية) وكل هذه البدائل يسكنها بالضرورة ما يتناقض (مادة وروحًا) مع الأسس التى يتكون منها هوية المسلم على مستوى المنهج العقدى والتطبيق العملى. فهى مصطلحات ليست بريئة من انتمائها لإيديولوجيات معينة تعبر عنها وعن التوجه الاجتماعى والسياسى الذى تهدف إلى تطبيقه فى المجتمع، ويكفى أن نعلم أن مرجعياتها كلها تدور مع أهواء الطبقة الحاكمة أو الحزب الحاكم وجودًا وعدمًا على حساب الطبقات الأخرى.

***

إن أساس الهوية للمسلم (شجرة العقيدة) التى تمثل قاسمًا مشتركًا أصيلًا لكل مسلم فى أى مكان فى بلاد المسلمين أو فى غيرها بصرف النظر عن لغته وجنسه وعرقه وموطنه الجغرافى، فالمسلم فى باكستان والمسلم فى دول شرق آسيا وفى أوربا لا يفترق الواحد منهم عن الآخر فى اعتزازه بالانتماء إلى هذا الأصل العقدى وما يتفرع عنه من أوامر ونواهٍ والتزامات أخلاقية واجتماعية. فالكل ينتمى إلى هذه الشجرة ويستظل بمفرداتها اعتقادًا وسلوكًا، فإذا سألت المسلم فى أى موقع على ظهر الأرض ... من أنت؟ كانت إجابته أنا مسلم. وهذه العبارة وحدها جامعة لكل ما يندرج تحتها من مفردات خاصة به دون غيره تجسد هويته التى ينتمى إليها إيمانًا بها والتزامًا بأوامرها.

ولا يوجد مانع بعد تأسيسه لهذه القاعدة وإشارته إليها باعتبارها الأصل للبناء الثقافى له أن يضيف إليها بعد ذلك ما يميز المسلم الباكستانى عن المسلم الهندى عن المسلم المصرى من خصائص إقليمية ينفرد بها كل

واحد منهم عن الآخر مثل اللغة والموطن والجنس. وتلك محددات أساسية (اللغة/ الوطن/ الجنس والعرق) ينفرد بها كل مسلم فى بيئته الجغرافية الخاصة به إضافة إلى الأصل العقائدى المؤسس لهويته ثقافيًا وحضاريًا وهو الإسلام.

***

تأسيس الهُوِّية للدولة بالمدينة:

استغرق بناء الشخصية المسلمة فى مكة ثلاثة عشر عامًا، واطمأن الرسول ﷺ إلى أن العقيدة التوحيدية قد ملأت قلوب الصحابة وتمكنت من قيادة الحركة اليومية للصحابة فلا يتحركون إلا تلبية لأمر عقائدى، ولا يغضبون إلا إذا انتهكت محارم هذه العقيدة، وأصبح كل واحد منهم مؤهلًا وصالحًا؛ لأن يكون لبنة فى بناء الأمة، وعضوًا فعالًا فى تشييد مجتمع جديد يحمل عبء التأسيس لدولة جديدة تطالع العالم كله بمبادئ وقوانين لم يكن للعالم عهد بها من قبل. وكانت الهجرة إلى المدينة بمثابة الفتح الربانى للبدء فى تأسيس هذه الدولة الوليدة التى أذن لها أن تجسد بشكل عملى (الهوية) الجديدة لإنسان جديد صالح لأن يحمل راية هذه الهوية (علمًا وعملًا، قدوة وسلوكًا، إيمانًا بها ودعوة إليها) إلى الإنسان – عالميًا - أيا كان لونه وجنسه ولغته، يجسد شعارها قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ** ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومبدؤها: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا** ﴾ [النساء: ١]، ومنهجها: ﴿ **فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن**

شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف: ٢٩] ودعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن.

وما أن وصل موكب الرسول ﷺ إلى المدينة واستقر به المقام كان أول عمل قام به تأسيس وبناء أول مؤسسة جامعة لشئون الدين والدنيا معًا، وهو مسجد قباء، الذى كان مؤسسة سياسية واجتماعية ودينية. كان جامعًا وجامعة، فيه يجتمع الرسول القائد والزعيم بمجلس الشورى من الصحابة (مهاجرين وأنصار) للتفكير فى الكيفية المناسبة لوضع أسس هذا البناء الجديد لدولة المدينة، وبدأ القرآن المدنى يتنزل على قلب الرسول ﷺ بالأوامر والنواهى التى تحدد واجبات المسلم نحو ربه، ونحو نفسه، ونحو مجتمعه، وتنظم علاقاته بغير المسلم، وكانت آيات التشريع تتنزل على قلب الرسول ﷺ أحيانًا إجابة على أسئلة مطروحة ليس عنده إجابة عنها، وأحيانًا تنزل الآيات تأسيسًا وتعليمًا وتربية ودروسًا لتشكيل نظرة شاملة لبناء مستقبل الدولة.

فكانت التشريعات القرآنية وما واكبها من سنة الرسول ﷺ بمثابة البيان الإلهى والتفصيل النبوى والدستور الجامع لما تقتضيه عقيدة التوحيد التى تأسست فى مكة، وتشربتها قلوب الصحابة، وجعلت قلوبهم وعقولهم صالحة ومؤهلة لتقبل هذه التكاليف الشرعية الجديدة التى نزل بها الوحى فى المدينة المنورة، إنها الأوامر والنواهى الشرعية التى حددت معالم الطريق للمسلم؛ لكى يصح له الطريق لكى ينخرط فى مدارج السالكين إلى الله. إنها الصلاة والصيام والزكاة والحج والإيمان بالقدر.

إنها أركان العقيدة التى تأسست فى مكة.

إنها السنن والنوافل والمندوبات التى جمعها الحديث الشريف: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، أَفْضَلُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَوْضَعُهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » . «الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(١).

إنها قوانين التعامل المدنى بين أفراد المجتمع المسلم، إنها مواد الدستور الحاكم.

إنها شُعَب هوية المسلم ومكوناتها، وعناصرها الثقافية التى تتجلى فى سلوك المسلم وعلاقاته المتعددة مع المجتمع والكون.

وإن شئت فقل: إنها تحدد مسئولية المسلم تجاه المجتمع وما فيه ومن فيه، ويكون الإيمان بها والعمل بمقتضاها أمارة ناطقة بخصوصيته الذاتية التى تنبئ عن هويته الإسلامية.

وأعود إلى المثال السابق: إذا سمعت من يقول لك: السلام عليكم ورحمته وبركاته فتعلم أن ذلك الشخص مسلم؛ لأنه قد أعلن عن هويته (تحية المؤمن السلام) وهذه التحية ليست فريضة ولا ركنًا، وإنما هى نافلة تفتح القلوب المغلقة لتتشرب رسالة السلام والمحبة. قال صلى الله عليه وسلم: «لاَ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»(٢).

إن هذه الشُّعَب الواردة فى حديث الرسول ﷺ تشكل البناء الأساسى

(١) سنن النسائى، كتاب الإيمان وشرائعه، باب ١٢، حديث رقم (٥٠٠٥).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٢، حديث رقم (٢٠٣).

لثقافة المسلم اجتماعيًا وسياسيًا، وتربطه بعقيدته بحبل متين؛ لأن هذه الشُّعَب تشكل أغصان الشجرة المباركة وفروعها، وهى ثمرتها التى يجنيها المجتمع المسلم حين تتجلى فى سلوك أفراده، يجنيها المجتمع أمنًا وآمانًا، وسلامًا اجتماعيًا، ورخاء اقتصاديًا، ومودة بين أفراده، ومحبة تمتلئ بها القلوب؛ إذ يصير الكل فى مودتهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، ويصبح الكل مسئولًا عن حماية الكل والحفاظ عليه، فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالغنى فى محيطه راعٍ ومسئول عن رعيته من الفقراء.

والقوى فى محيطه راعٍ ومسئول عن رعيته من الضعفاء.

والحاكم راعٍ ومسئول عن رعيته من المحكومين ... وبقدر إحساس المرء بذاتيته وقوة تأثيره فى المحيط الذى يعيش فيه يكون مسئولًا عن معاونة المحتاجين وسيادة المبادئ الأخلاقية كما أنه مسئول عن شيوع كل معروف ومحاربة كل فساد ومنكر على قدر استطاعته.

هذه هى محددات هوية المسلم وثقافته وتلك خصوصيته؛ وحراسة هذه الشُّعَب الإيمانية إنها وظيفة كل مسلم حسب استطاعته.

وهى من الوظائف الأساسية التى تحدد هوية الدولة المسلمة التى تسوس بها دنيا الناس فى حراسة من دينهم.

لقد كان مجتمع المدينة بمثابة النواة الأولى التى أسست المبادئ التى يعيش بها ويعيش عليها المجتمع المسلم. وكانت التشريعات التى صدرت عن الوحى المدنى تشكل عناصر الأساس لخصوصية المجتمع المسلم على

مستوى المسئولية الفردية والجماعية، وبالتالى فإن هذه التشريعات تشكل عناصر أساسية للهوية الإسلامية التى ينتمى إليها المسلم أيا كان موطنه الجغرافى وجنسه وعرقه ولغته، وهى تشكل العناصر الجوهرية لثقافة المسلم يؤمن بها ويدافع عنها ويدعو إليها باعتبارها مطلبًا إنسانيًا وفطريًا وأمرًا إلهيًا، فإذا كان هذا المسلم يعيش على أرض مصر، أو فى الهند، أو فى أوربا، فإن هذه العناصر لا تختلف عن ثقافته باعتبارها مكونًا أساسيًا لثقافة كل مسلم فى أى مكان وأى زمان، فالمسلم مكلف شرعًا بحراسة هذه العناصر، وصيانتها من أن تغيب عن محاور التأثير فى ثقافة المجتمع أو التزييف لها أو تزويرها أو استبدالها بمكونات ثقافية أخرى تحتل مكانتها فى عقيدة المجتمع أو تناهضها بوسائل التأثير المختلفة – وما أكثرها – فإن المسئولية تقع على الحاكم أولًا وعلى أصحاب الكلمة الصادقة المؤثرة ثانيًا بالتنبيه والتحذير.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الهوية الإسلامية لابد أن تتجلى وتظهر آثارها فى سياسة الأمة، وتكون ضابطة لعلاقات الأفراد وحاكمة لها وحاكمة عليها فى نفس الوقت، وتبدو دلائلها واضحة فى المظاهر الكاشفة عن هذه الخصائص التى تميز الأمة عن غيرها من الأمم الأخرى، فأنت تسمع صوت المؤذن خمس مرات يوميًا فى الدولة المسلمة، ولا تسمع ذلك فى الدولة غير المسلمة، وترى المسلمين فى أيام الجمعة والأعياد يجتمعون لأداء الشعائر فى وقت واحد. ولا ترى ذلك فى الدول غير المسلمة، وتراهم يصومون شهر رمضان كل عام، ويمتنعون عن شراب الخمر، ولا ترى ذلك واقعًا فى الدول غير الإسلامية، كما تنعكس آثار هذه الهوية فى خصائص الأمة الحضارية والثقافية وخصائصها العقائدية التى لا تجدها فى الأمم الأخرى. فالمسلم

يدفع حق الفقير فى ماله (الزكاة) باعتباره حقًّا معلومًا فرضته عليه عقيدته الدينية ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] وغير المسلم لا يفعل ذلك. وإن قدم مساعدة للفقير فلا يكون ذلك من منطلق عقائدى بل يكون تنفيذًا لقوانين دولته إن كان ذلك موجودًا فى قوانينها.

وتجد المسلم يؤمن بحرمة الغش والتزوير؛ لأن دينه ينهاه عن ذلك ويتوعده بالعذاب الأليم إن هو فعل ذلك بينما لا تجد ذلك عند غير المسلم. وإن التزم به فيكون خوفًا من تطبيق القانون وتنفيذ العقوبة ... وهكذا تبدو خصوصيات الهوية الإسلامية فى ثقافة المسلم وسلوكه الاجتماعى وفى علاقاته ومعاملاته منضبطة بأخلاقيات الإسلام وأوامره ونواهيه، مما يجسد هويته أمام الآخرين. وبالتالى ينعكس ذلك كله فى هوية الأمة التى تعبر عنها فى قوانينها الحاكمة، وفى دستورها العام الضابط لهذه القوانين والمرجعية لها.

إن هوية المسلم – فردًا وجماعة – تظهر خصائصها الذاتية فى علاقاته الاجتماعية، فى حضارته، فى أخلاقه باعتبار أن هذه خصوصيات كل أمة ومكونات هويتها وعناصرها التى تشكل أغصان الشجرة المباركة وفروعها التى تنبثق من جذعها الأساس والأصل المبارك، وهو عقيدة التوحيد.

***

مازال يتردد كثيرًا في أجهزة الإعلام السؤال عن (هُوية مصر) في المستقبل، وماذا ينبغى أن ينص عليه الدستور: هل مصر إسلامية أو علمانية ديمقراطية أو هى دولة ليبرالية، وتعددت ندوات الحوار حول هذا الموضوع، وبات سؤال الهوية الشغل الشاغل لبعض الكتاب الذين ينصبون أنفسهم وكلاء عن شعب مصر فى رسم مستقبلها السياسى وخريطة العلاقات

الاجتماعية لهذا الشعب، ومن المعلوم أن تفشى الأمية – خاصة الأمية السياسية بين الطبقة التى تتلقى ثقافتها من أجهزة الإعلام كان سببًا في إحداث نوع من اللبس والتضليل حول سؤال الهُويَّة.

وهل الهويَّة الإسلامية لشعب مصر يراد لها أن تترك مكانها ومكانتها لهوية الثقافات الوافدة؟ خاصة أن دوائر الحوار حول هذه القضية لم تخلُ من التشنيع على كل ما هو إسلامى في السياسة.

فمرة يقولون لا نريد أن يحكمنا اللاهوت الذى يحلل ويحرم كما يحلو له.

ومرة لا نريد دولة الملالى في إيران.

وثالثة يقولون: لا نريد العودة إلى فكر البادية وحضارة البدو، ولا نريد أن تنقل كاندهار إلى مصر وبقايا بن لادن، والذى يتابع ما ينشر أو يذاع إعلاميًا على لسان هؤلاء الكتاب لابد أن يتملكه العجب.

ماذا يريدون بمصر..

وماذا يزعجهم من الهوية الإسلامية التى استقرت فى ضمير الشعب المصرى المسلم فيه والمسيحى. ولا يخفى على المتابع لذلك ما يسلكه هؤلاء من استعمال وسائل التنفير والتخويف من كل ما هو إسلامى إذا تحقق على أرض الواقع في مصر.

ولم يجدوا ما يشنعون به على كل ما هو إسلامى إلا خوفهم من تحريم الخمر، ولباس البحر، والسياحة الشاطئية، وما تستلزمه من سلوكيات خاصة أبسط ما يقال عنها أنها سلوكيات منافية للآداب والأخلاق، وكأن المشكلات التى تعانى منها مصر سياسيًا واقتصاديًا، هى تحريم الخمر أو عدم ذلك، هى

لباس البحر أو عدم ذلك، هى سلوكيات الشواطئ، أو عدم ذلك.. وهذا في حد ذاته يدلك على المخزون النفسى والعقلى الذى يشغل فكر هؤلاء ويستحوذ عليهم في صباحهم ومسائهم حتى في ندواتهم وحوارهم الثقافى.

من هنا وجب أن نبين بإيجاز مفهوم هذه المصطلحات السياسية التى ينادى بها هؤلاء بديلًا عن الهوية الإسلامية، وكيف تتعامل أمريكا وأوروبا مع شعوب العالم الثالث تحت ستار كثيف من هذه المصطلحات التى يروجون لها فى مصر (دولة مدنية – علمانية – ليبرالية – ديمقراطية) وغير بعيد عن الأذهان ما فعلته أمريكا بشعب العراق تحت مسمى الديمقراطية التى تبشر بها فى المنطقة العربية وما تفعله فى أفغانستان والسودان الآن تحت هذه المسميات لصالح الدولة العبرية على حساب شعب فلسطين والمنطقة العربية كلها، مما يدل على أن الحرية التى يرفعون شعارها حلال لهم محرمة على غيرهم، ومن يطالب بحريته من هذه الشعوب فإن مصيره ينتظره فى سجون "جوانتانامو" و"أبو غريب".

والديمقراطية التى يتحاكمون إليها لا تصلح إلا لشعوبهم ومحرمة على غيرهم. ومن يطالب بها فى بلده فإن مصيره إلى المجهول.

والأموال التى يقدمونها للجمعيات المدنية تحت هذه المسميات الخادعة لا تخدم إلا مصالحهم فى إسناد الحكم إلى من يرفع شعار الولاء لهم والبراء من كل ما هو إسلامى .. فأين هى حريات الشعوب التى يعملون لصالحها؟

وأين هى الديمقراطية التى يتحاكمون إليها فى البلاد التى أطاحوا بالحكم فيها...؟

[١] **مفهوم الدولة المدنية:**

من المفيد للقارئ أن ننبه هنا إلى معنى هذا المصطلح فى مصادره الأساسية حتى يعرف الشباب الذين يقرأون هذه المصطلحات أو يسمعونها فى الإعلام أن هذه المصطلحات ليست بريئة ولها دلالتها الخاصة بها فى المجتمع الذى نشأت فيه، وهى محملة بهومه الاجتماعية والثقافية، ونحن نرددها دون تحر لمعناها ونحاول أن نضفى عليها ما نريد وما نحب من مفاهيم مقبولة حتى نجد لها رواجًا، وهى فى نفس الوقت لا تمت لمعناها الحقيقى بسبب.

تشير المصادر المتخصصة إلى أن أول استعمال للمصطلح "مدنى" وصفًا للدولة ورد فى كتاب الأمير لمكيافيلى (١٤٩٦- ١٥٢٧م) وهو يؤسس لبناء الإمارة المدنية فى كتابه المذكور كان مما أشار إليه باهتمام حول مبادئ هذه الإمارة: أن هذه الإمارة لا يجوز أن تخضع لأى مبدأ أو قانون فوق، أو أى قيمة مرجعية تحدّ من سلطة الأمير، أو تكون فوق قانون الدولة، أو تكون حاكمة لها أو متحكمة فيها، ووضع شعارًا عامًا لهذه الإمارة (أن الغاية تبرر الوسيلة) وجعل الباب التاسع فى هذا الكتاب – كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين(١) - بعنوان (فى الإمارة المدنية) وكان ذلك بداية ظهور مصطلح (مدنى) وصفًا للإمارة، ولخَّص مكيافيلى خصائص هذه الإمارة فى شرطين:

١- عدم خضوع هذه الإمارة لأى مفهوم دينى أو قيمى فوقى يتعارض مع سلطة الأمير.

(١) انظر تفصيلات أكثر فى: الدولة المدنية. مفاهيم وأحكام. أبو فهر، ط عالم النوادر سنة ٢٠١١م، ص٥٢-٥٣.

٢- أن يتم اختيار الأمير بواسطة النبلاء ومن طبقتهم.

وإذا توافر هذا الشرطان فيها يصح أن يطلق على الإمارة أنها "إمارة مدنية" فهى رافضة لأى مرجعية دينية أو قيمية تتعارض مع سلطة الأمير أو مع قوانين الإمارة، ومن المفروض أن رفض المرجعية الدينية هنا يتعلق أساسًا بسلطة الكنيسة وما تمليه على شعبها من قوانين، فالرفض لا يتعلق بالمسيحية كعقيدة ودين ولكن يتعلق بسلطة الكنيسة فقط.

ثم أخذ مفهوم الدولة المدنية يتطور بعد ذلك فى كتابات المفكرين؛ حتى وصل إلى جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) الذى يعتبره منظرو الفكر السياسى فى أوروبا أهم من أسس لنظام الدولة المدنية الحديثة فى الغرب، كتب "لوك" "مقالتان فى الحكومة المدنية" سنة ١٦٩٠م وهما من أهم كتابات "لوك" عن الدولة المدنية، وكان من أهم ما نبه إليه فى هاتين المقالتين أنه نص على أنه "... مادامت السلطة ذات طابع كنسى فيجب أن تكون مقيدة بحدود الكنيسة؛ إذ ليس فى إمكانها بأى حال من الأحوال أن تمتد إلى الشئون الدنيوية؛ لأن الكنيسة ذاتها منفصلة عن الدولة ومتميزة عنها تمامًا، فالحدود بينهما ثابتة ومستقرة، ويقول: "ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية"[1].

كما أشار إلى أن نظام الحكم المدنى لا يجوز أن يحمل فى طياته أى معرفة عن الدين، وكل ما يبيحه القانون فى الدولة لا يجوز أن تعتبره الكنيسة محرمًا أو تعترض عليه؛ لأن القانون الذى ترتضيه الدولة المدنية لا يجوز أن

(١) المصدر السابق ص٦٤.

تعارضه أى مرجعيات دينية فوقية[1].

والذى يلفت النظر هنا أن كل كتابات المفكرين فى الغرب عن علاقة الدولة المدنية بالفوقيات المرجعية أو المرجعيات الفوقية تنصب كلها على سلطة الكنيسة وقوانين الكنيسة[2]، وهذا ما استقر عليه مفهوم الدولة المدنية فى كتابات الغرب. الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكم فى الدولة المدنية، والرفض المطلق لكل مرجعية فوقية تتعارض مع القانون الذى ترتضيه الدولة المدنية أو تحد من سلطة الحاكم فيها. هذه أسس الدولة المدنية التى تقوم عليها مبادؤها الدستورية وتمنع كل ما يتعارض معها من القوانين والأفكار الدينية.

[٢] مفهوم الدولة العلمانية:

ربما كان هذا المصطلح أكثر شيوعًا فى الكتابات السياسية قبل ثورة ٢٠١١/١/٢٥م، وازداد شيوعًا وانتشارًا بين المنظِّرين للفكر السياسى فى مصر بعد هذه الثورة. ويخلط الكثيرون فى تناولهم لهذا المصطلح بين مفهوم السياسة العلمانية فى الغرب التى يريد البعض أن يستوردها للعمل بها فى مصر، ويحاول أن يوفق بينها وبين ما هو منصوص عليه فى السياسة الشرعية الإسلامية متناسيًا الأصول أو الركائز التى تأسس عليها الفكر العلمانى عمومًا والسياسة العلمانية بصفة خاصة، سواء تعلقت هذه السياسة بثقافة الشعب أو بالتربية والتعليم أو بالنظم الاجتماعية، فإن الأساس الذى تقوم

(١) المصدر السابق ص٦٤.

(٢) المصدر السابق ص٦٥.

عليه السياسة العلمانية هو العمل من أجل الدنيا فقط ولا شيء وراء الدنيا نعمل من أجله، ورحم الله محمود عباس العقاد حين ترجم المصطلح Secularism بالدنيوية. ومن المهم أن نرجع إلى المصادر التاريخية لمصطلح العلمانية لنتعرف على دلالته، فإن العلمانية كمصطلح سياسى اجتماعى نشأ كنتيجة طبيعة لقصة الصراع بين الكنيسة والعلماء فى العصور الوسطى فى أوروبا، شأنه فى ذلك شأن أخواته من المصطلحات التى تشاركه نفس هذه الظروف فى التأسيس والنشأة (ليبرالية/ حداثة/ مدنية) فكلها مصطلحات محملة بهموم المرحلة التاريخية التى أفرزتها، ومن أهمها إقصاء الحياة السياسية والاجتماعية عن كل ما هو دينى كنسى، والاهتمام فقط بكل ما هو دنيوى فى مقابل تركيز الكنيسة على العمل فقط من أجل الآخرة والتخلص مما هو دنيوى، وتفصيلات القصة طويلة ومعروفة، وليس من همنا الآن تفصيل القول فيها[1].

جاء فى دائرة المعارف البريطانية أن العلمانية (حركة اجتماعية تهدف إلى صرف وتوجيه الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها)

---

(١) انظر: معجم اللغة البريطانية ١١٣٨/٣، ومعجم أكسفورد ٨٤/٩، وتاريخ الإلحاد فى الغرب لرمسيس عوض ص٢٥١.

وتشير كل هذه المعاجم إلى أن العلمانية ترفض كل ما هو دينى أو مقدس. فمن أين ولماذا يحاول هؤلاء المرجفون أن يقولوا أن العلمانية محايدة وليست رافضة لكل ما هو دينى. هل هى علمانية خاصة بهم.

راجع الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب واستلاب الهوية: أ.د/ محمد السيد الجليند، فصل (العلمانية).

وأخذ المصطلح يتطور مفهومه السياسى نحو الفصل التام بين كل ما هو دينى وما هو دنيوى، والإقصاء التام لكل ما هو دينى عن شئون السياسة فى الدولة، فالمصطلح فى أصل نشأته لم يكن محايدًا فى موقفه من الدين – كما يحاول البعض ذلك – وإنما حدَّد موقفه سلفًا بأنه هو الرفض المطلق لأى علاقة بين الدين وسياسة الدولة. فالسياسة العلمانية ليست محايدة ولا المصطلح السياسى محايد فى شأن العلاقة بين الدين والسياسة، والأساس المتفق عليه هو الفصل التام بين الدينى والسياسى.

وأشار المعجم الدولى الثالث إلى نفس المفهوم الموجود فى دائرة المعارف البريطانية وشرح المصطلح Secularism بأنه (... اتجاه فى الحياة يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل فى الحكومة أو استبعاد الاعتبارات الدينية.. فهى تعنى السياسة اللادينية البحتة فى الحكومة، وهى نظام اجتماعى فى الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعى دون النظر إلى الدين، أو باعتباره مرجعًا أو مصدرًا لأى قانون يتعلق بسياسة الدولة[(١)].

[٣] الليبرالية:

أما الليبرالية فهى مصطلح غير واضح الدلالة إلى الآن. فهل يدل المصطلح على النزعة الفردية والحرية المطلقة للأفراد تجاه سلطة الدولة، كما يرى ذلك بعض المفكرين والمنظِّرين له أم هو علاقة خاصة بين سلطة الدولة

(١) راجع العلمانية (بحث دكتوراة) سفر الحوالى، ص١٢. وانظر البحث الممتاز: موقف الفكر العلمانى من النص القرآنى للدكتور أحمد الطحان ص٨٠-١١٥.

والأفراد[1].

لقد أخذ المصطلح يتطور فى دلالته السياسية والاجتماعية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، ورغم اختلاف الدلالة من مفكر إلى آخر إلا أن القاسم المشترك الذى أجمع عليه المفكرون هو دلالته على النزعة الفردية تجاه تدخل الدولة فى أى شأن من شئون الأفراد سياسيًا واقتصاديًا. وهذا القدر المشترك محل إجماع بين أنصار المذهب الليبرالى، فلابد من إفساح المجال أمام الأفراد (... بأن يمضى الفرد قدمًا إلى الإمام فى البحث عن الثروة والملكية الخاصة أو سعادته الخاصة والنفعية) فهو مذهب نفعى فردى يجسد الحرية المطلقة للأفراد وعدم تدخل الدولة فى شئونهم الخاصة ... وليس له أى مرجعية سياسية حاكمة أو ضابطة إلا ما تتفق عليه الجماعة الحاكمة، أو الحزب، أو الطائفة، والرفض المطلق لكل ما يعارض الدستور الحاكم أو يقف أمام تحقيق أهدافه. وما زال المصطلح كمفهوم سياسى يحوطه الغموض، فهل هو مذهب فى السياسة أو توجه اجتماعى يعبر عن آمال الطبقة الوسطى فى المجتمع (البرجوازية) أو هو مذهب فى الاقتصاد الحر الذى تنشره أمريكا فى العالم (اقتصاد السوق)، ولشدة غموض المصطلح نجد الذين تناولوه بالشرح والتتبع التاريخى له وصفوه بأنه أشبه بالوصفة السحرية التى يسهل ابتلاعها دون معرفة ولا دراية بمكونات هذه الوصفة[2].

---

(١) انظر الليبرالية إشكالية المفهوم – ياسر قنصوة – ص٩٨ وما بعدها. وهو بحث قيم تناول المصطلح منذ نشأته تاريخيًا وتطوره فى كتابات السياسيين إلى الآن.

(٢) نفس المصدر.

[٤] **الديمقراطية:**

ولا يبعد عن ذلك مصطلح الديمقراطية. فهو مصطلح غير محايد وله دلالته الاجتماعية التى ينعكس أثرها فى الفكر السياسى، فإذا تناولنا المصطلح فيما بينا على أنه حكم الشعب بالشعب أو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه فإن السؤال الذى يطرحه المصطلح من واقع نشأته التاريخية هو. من هو الشعب الذى يحكم ...؟ ومن هو الشعب المحكوم ...؟ لو رجعنا إلى تاريخ نشأة المصطلح – وهو يونانى الأصل – سوف نجد أن المصطلح كان يقصد به حكم الطبقة المالكة (الملاك) أو أصحاب الحيازة الملكية؛ لأنهم وحدهم الذين لهم حق الانتخاب، ومنهم فقط تتكون الطبقة المالكة الموجودة فيما يسمى الآن بالدائرة الانتخابية، فمن لا يملك عقارًا (حيازة) لا يكون له حق التصويت فى الانتخاب. والكلمة الرنانة الكامنة فى مصطلح الديمقراطية (المساواة) ليست مساواة بين كل البشر كما يظن الكثيرون. وإنما هى مساواة بين أفراد الطبقة المالكة (النخبة)؛ ولذلك فإن الذين لا يملكون شيئًا لا يتمتعون بهذه المساواة(١).

وليس القصد هنا تفصيل القول فى بيان هذه المصطلحات أو دلالتها السياسية والاجتماعية، وإنما هى إشارة إلى أن كل مصطلح سياسى أو ثقافى نشأ فى مجتمع معين يكون محملًا بهموم هذا المجتمع ثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا، دالًّا على خصوصيته فى هذا المجتمع وحده، وقد لا توجد هذه الخصوصية فى غيره من المجتمعات الأخرى تبعًا لاختلاف الثقافات واختلاف العقيدة.

(١) المرجع السابق ص١١٢- ١١٣.

ولا شك أن المجتمعات تتباين فيما بينها وتختلف مع احتفاظها بالمشترك الإنسانى بين كل الشعوب.

هويات متباينة:

وهنا نقطة جديرة بالتنبيه والإشارة إليها. فمن المعروف أن النظرية السياسية لكل أمة تجسد بالضرورة ثقافة هذه الأمة وتدل على مرجعيتها الثقافية (من العقيدة واللغة والجنس) وبالتالى يكون ضروريًا أن النظريات السياسية للأمم والشعوب تتباين فيما بينها بحسب تباين مرجعياتها الثقافية والاجتماعية، وبحسب نظرتها الفلسفية العامة للوجود، وللإنسان، ووظيفة الإنسان فى هذا الكون، وفلسفة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من حيث مقاصدها وغاياتها، ومن حيث أسسها العقائدية والدينية، ويترتب على اختلاف هذه المنطلقات اختلاف القوانين الحاكمة من حيث توجيه حركة المجتمع نحو تحقيق المقاصد والغايات التى ترشد إليها المرجعيات، والمصادر التى تؤسس لها خصوصياتها وتجسد هويتها وذاتيتها التى تعمل على صيانتها من أن تذوب أو تتلاش فى ثقافات الآخرين.

وهذه الخصوصيات التى تتباين بها النظم السياسية بين الشعوب لا تمنع من وجود القدر المشترك العام بين كل هذه النظم، والذى يجسد المشترك الإنسانى بين كل الشعوب، فالإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان له حقوقه وعليه واجباته، وقد أشار إلى كل ذلك علماء الاجتماع السياسى كما نبهت إليها الأديان السماوية، وحذرت من الاعتداء عليها باعتبارها حقًّا مشروعًا أو واجبًا مأمورًا به. ونصت عليها شريعة الإسلام باعتبارها ضروريات حياة

يجب حفظها، واعتبرت الاعتداء عليها من المحرمات الكبائر، وأطلق عليها فقهاء الأصول مصطلح المقاصد أو الضروريات الخمس المتمثلة فى حفظ (النفس – العقل – المال – العرض – والدين)، وانفرد الإسلام بأن حافظ عليها بوضع الحدود عقابًا لمن انتهك حرمتها وتحذيرًا من الاعتداء عليها، واعتبرت الشريعة الإسلامية أن مقاصد الشريعة كلها تدور حول صيانة هذه الحقوق والحفاظ عليها وسمتها بمقاصد الشريعة، وكانت القوانين والأحكام التشريعية تدور كلها حول المحافظة عليها لكل أفراد المجتمع سواء كان المواطن المقيم بالدولة يدين بالإسلام أو باليهودية أو المسيحية، أو لا دين له؛ لأن المقصد الأسمى هو تحقيق كرامة الإنسان المقيم تحت شعار المجتمع المسلم بصرف النظر عن دينه وجنسه.

ونشير هنا إلى أن القدر المشترك بين الشعوب لا يعيبه أبدًا أن يكون مجالًا لتبادل الأفكار والتأثير والتأثر وأن يخضع لعوامل التلقيح الثقافى بهدف تبادل الآليات والأدوات بين الشعوب المتقدمة والمتخلفة، فلا يضر المجتمع المتخلف صناعيًا أن يأخذ عن المجتمع المتقدم أدواته وآلياته.

كما لا يضير المجتمع المتقدم صناعيًا أن يقدم للمجتمعات المتخلفة صناعيًا الأدوات الحربية والصناعية؛ لأن هذه الآليات وتلك الأدوات لا تعبر عن الخصوصيات التى تتباين بها الشعوب، فهى صناعة بشرية وليست مرجعيات يستمد منها البشر ثقافته الاجتماعية ولا تؤسس عليها نظريته السياسية، فالشعب المتقدم صناعيًا فى هذا القرن قد يتقدم عليه ويسبقه شعب آخر فى قرن قادم. وربما سبقه شعب آخر فى قرن ماضٍ. وهذا أمر واقع

ومعروف بين الشعوب، ولا يحتاج إلى بينة.

أما هويات الشعوب الثقافية وخصوصياتها المؤسسة على مرجعيتها المقدسة تظل حاكمة وفاصلة، تتباين بها الشعوب، وتعتز بها الأمم سواء كانت متقدمة صناعيًا أم متخلفة، وتظل هذه الخصوصيات مصدر فخر واعتزاز وانتماء لكل شعوبها، إنها (العقيدة – اللغة – الجنس) هى العناصر المكونة لهوية الشعوب والأمم.

وهى الأساس الذى تبنى عليه شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع.

وهى المصدر الأساسى للعلاقة بين الحاكم والمحكوم فى المجتمع المسلم.

وهى مصدر القيم الأخلاقية التى تحكم سلوك الأفراد، وتضبط حركته داخل مجتمعه، وقد تتشابه النظم السياسية والقيم الأخلاقية بين الشعوب كما هو شأن القدر المشترك الإنسانى الذى أشرنا إليه سابقًا، لكن تظل المصادر والمنطلقات مختلفة، كما تكون الغايات والمقاصد متباينة، فهى إن تشابهت فى الشكل والمظهر لكنها تختلف فى المضمون والجوهر، فالمسلم يقوم بحقوق والديه وبحقوق جاره وبحقوق الفقير فى ماله، ويعمل على نظافة بيئته؛ لأن العقيدة التى يؤمن بها تأمره بذلك، فهو يقوم بها تقربًا إلى الله وتعبدًا له، وطمعًا فى ثوابه فى الآخرة، أما غير المسلم فهو قد لا يفعل ذلك أبدًا، وإن فعله فقد يفعله إما تنفيذًا لقانون أو طمعًا للمدح من الناس، أو شهرة فى المجتمع. لكنه لا يفعل ذلك لا تقربًا إلى الله ولا طمعًا فى ثوابه فى الآخرة. ومن هنا تختلف المنطلقات والمصادر كما تختلف البواعث والغايات.

المسيحية فى أوروبا:

وإذا تجاوزنا ذلك إلى طرح سؤال أراه ضروريًا هنا: هل الدول الأوروبية تنازلت عن هويتها المسيحية لصالح هذه المصطلحات؟ أم أن هناك تزييفًا للواقع الذى تعيشه أوروبا فى كتابات أصحاب هذه الانتماءات فى بلادنا؟

إن واقع الدول الأوروبية باعتبارها الموقع الجغرافى الذى أفرز هذه المصطلحات لم ترفض أبدًا آثار عقيدتها فى قوانينها ولا فى دساتيرها، ولم يتنكر فلاسفتها ولا منظروها للمرجعيات العقيدية وإن كانوا قد نصوا على ذلك فى كتاباتهم. ولعل أكبر دليل على ذلك ما نجده فى دساتير معظم هذه الدول من النص على ديانة الدولة، بل والنص على ديانة رئيس الدولة فى الدستور.

وهذا لم يدفع الأقليات الموجودة بهذه الدول إلى الشعور بالعزلة أو الإحساس بالاضطهاد. وهذه الأقليات لم تكن من المسلمين بل مسيحيين من مذاهب مختلفة، ومنهم يهود، ومنهم لادينيون، وإليك بعض النماذج:

١- ينص دستور الدانمارك فى المادة الرابعة منه على أن الكنيسة الإنجيلية اللوثرية هى كنيسة الدولة الرسمية ولابد أن تحظى بتأييد الدولة، وتنص المادة السادسة على أن الملك لابد أن يكون من أتباع هذه الكنيسة.

٢- ينص الدستور البريطانى فى القسم (١٨) فى المادة (٤) وهو دستور عرفى على أن الملك يكون من أتباع المذهب البروتستانتى وأن كنيسة إنجلترا وإسكوتلاندا هما الكنيسة الرسمية للدولة، وأن

إليزابيث هى الرئيس الأعلى للكنيسة.

٣-يبدأ الدستور اليونانى بعبارة: باسم الرب المقدس واعتقادنا بجوهرية وتوحد أقانيم الرب والثالوث الخفى، وينص فى المادة الثالثة منه على أن المذهب الأرثوذكسى الشرقى هو الدين الرسمى للدولة.

٤-ينص الدستور فى دولة السويد فى المادة الثالثة منه على أن الفقرة الرابعة من المرسوم الصادر من الملك كارل على أن الملك لابد أن يكون من أتباع المذهب الإنجيلى النقى، ولابد أن يكون جميع الأمراء والأميرات على هذا المذهب داخل المملكة، وأن أى أمير أو أميرة من أفراد العائلة المالكة لا يقر بهذا الاعتقاد يحرم من كل حقوق الخلافة أو التوريث.

٥-ينص الدستور فى دولة النرويج فى المادة الثانية منه على أن المذهب الإنجيلى اللوثرى هو المذهب الرسمى للدولة، ويجبر المقيمين فى البلاد المتبعين لهذا المذهب على تنشئة أولادهم على هذا المذهب، كما تنص المادة الرابعة من الدستور على أن الملك يجب أن يكون من أتباع المذهب، وأن يعمل على حمايته[1].

والذى أشير إليه هنا أنه إذا استعرنا مصطلحًا ما من بيئة ما إلى بيئة أخرى فلابد من تمحيصه أولًا لنعرف ما هو مشترك فيه وما هو خاص ببيئته هو، فنقبل العام والمشترك منه إذا لم يتعارض مع خصوصيتنا، أما ما هو خاص ببيئته هو فيجب التخلص منه وأن يحل مكانه ما هو خاص بنا نحن

(١) انظر: الدولة المدنية مفاهيم وأحكام – أبو فهر – ص١٢٠- ١٢٣.

وما يميز خصوصيتنا نحن ويجلى هويتنا نحن، حتى لا يغيب وعينا بذواتنا وذاتيتنا ولا نذوب فى خصوصيات الآخرين.

الدولة الدينية:

أما الحديث عن الدولة الدينية التى يضعها البعض كمقابل لهذه المصطلحات ويعتبر أن المفهوم الإسلامى للدولة هو (الدولة الدينية) فهذا خطأ فى التصور وخطأ فى مفهوم السياسة الشرعية فى الإسلام، أما أنه خطأ فى التصور فإن مفهوم الدولة الدينية كما يتردد فى كتابات البعض ليست من الإسلام فى شيء، فلم يعرفها الإسلام تاريخيًا، ولم يدع إليها فى نصوصه ولا تعاليمه، بل حذر منها صراحة.

إن مفهوم الدولة الدينية قد عرفته العصور الوسطى فى أوروبا خلال سلطة الكنيسة ودعوى أن كلام الكنيسة وحى مقدس، ومن هذا المنطلق كان القسيس هو الذى يعيِّن الإمبراطور ويعزله، ويملى عليه ما يشاء من سياسات وأفكار لا تقبل النقد أو الرفض، ومن يقف ضد عقيدة الكنيسة أو يرفض رأيها فجزاؤه الحرمان من رحمة الكنيسة، وظل هذا المفهوم سائدًا إلى أن ثار العلماء فى وجه الكنيسة وتحررت سياسة الدولة من سطوتها، ومن المعلوم عند فقهاء الدستور أن مفهوم الدولة الدينية بمستوياتها المتعددة لا مكان له فى الفكر السياسى الإسلامى أبدًا(١).

---

(١) انظر فى ذلك المفهوم: البحث الممتاز عن مفهوم الدولة المدنية – المبحث الثانى عن الدولة الدينية – لأبى فهر – ص٣٥-٣٦، وراجع: الأنظمة السياسية المعاصرة – يحيى الجمل – ص٥٨، والنظم السياسية – ثروت بدوى ٦/١، والنظم السياسية لعاطف البنا ص٥٣،

ثم إن الدولة بالمفهوم الدينى الشيعى التى يحكمها الفقيه نيابة عن الإمام الغائب ليس لها مكان فى الفكر السياسى عند أهل السنة، فلا عصمة للإمام ولا ولاية للفقيه، والحاكم بشر يصيب ويخطئ، ويتولى الحكم بالاختيار المباشر، وتعزله الأمة إن لم يحقق مصالح الناس أو لم يدرأ عنهم المفاسد، ولعل عبارة أبى بكر أول خليفة على المسلمين بعد المعصوم صلى الله عليه وسلم قد حددت مكانة الحاكم ووظيفته حين قال: [وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أصبت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى} وفى عبارة عمر: [أطيعونى ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم].

***

وعند مقارنة هذه المفاهيم السابقة بمفهوم السياسة الشرعية فى الإسلام سوف نجد أن كل معنى حسن وإنسانى فى هذه المصطلحات قد تضمنته السياسة الشرعية فى الإسلام ونصت عليه واعتبرته مكونًا أساسيًا من مفهوم السياسة الشرعية، فإذا كان مصطلح الليبرالية يجعل الأولية للحرية الفردية، فإن الحرية فى الإسلام فريضة دينية لا ينبغى لأحد حاكمًا كان أو محكومًا أن يتجاوزها أو يفرط فيها، لكنها الحرية المسئولة المنضبطة بضوابطها الشرعية التى لا تتجاوز حريات الأخرين أو تعلو فوق حقوقهم.

وإذا كانت الديمقراطية تعنى المساواة فى الحقوق والواجبات فإن مبدأ المساواة حق شرعى بل هو من الضروريات التى نص عليها الشرع؛ لكنه حق لكل الناس، وليس لطبقة معينة أو لحزب حاكم دون غيره، كما هو الشأن فى الممارسات التى نعيشها فى الواقع الحزبى.

وتاريخ الفكر السياسى لشوفالييه ص٢٠٤- ٢٠٦.

إن مكونات مصطلح السياسة الشرعية يشتمل على كل ما هو حق للإنسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن لغته وجنسه ودينه، وبصرف النظر عن انتمائه الحزبى أو الأيدليوجى؛ لأن المشرع هنا ليس حزبًا يحرص على حقوقه ولا يسمح لأحد أن يطالبه بالواجبات.. وليس طبقة تشرع لمصالحها الخاصة ولو على حساب الطبقات الأخرى فى المجتمع .. وليس فردًا حاكمًا يمتد سلطانه إلى التشريع، فيقبل منه ما يمد لسلطانه ويرفض منه ما يعارض أهواءه ورغباته.

إن المشرع فى السياسة الشرعية هو الله، وتدور مقاصد التشريع السياسى فى الإسلام حول تحقيق المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد وتقليلها، ولذلك كان تعريفها عند فقهاء السياسة: هو سياسة الدنيا وحراسة الدين (الدستور) أو سياسة الدنيا فى حراسة الدين. والقصد من العبارة الأخيرة حفظ الدين وحراسته باعتباره الدستور الحاكم والمحقق لمصالح الأمة؛ وإن تعارض ذلك مع أهواء الحاكم.

***

إن من أهم الخصائص التى يتميز بها الشرع فى الدولة الإسلامية أنه مقدس عن الأهواء الحزبية والطائفية والفئوية، وهدفه الانتصار لمبدأ العدل وتحقيقه بين سواد الرعية، وحراسة الحق من جور المسئولين وطغيانهم، وحماية الضعفاء من تسلط الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال.

وفى الدولة الإسلامية يستمد الدستور الإسلامى قداسته من قداسة واضعه وهو الله، ويرتبط تنفيذ بنوده وقراراته بعقيدة الأمة وإحيائها فى نفوس الأفراد؛ ليكونوا هم الحراس الأمناء على تنفيذه باعتبار ذلك مقصدًا

أساسيًا من مقاصد السياسة فى الدولة الإسلامية.

إن من وظيفة الدولة الإسلامية أن تربى الأفراد على حراسة المبادئ والقوانين خوفًا أن تنتهك حرمتها أو تموت قداستها فى نفوس الأفراد؛ لأن حراسة هذه القوانين جزء مكمل لإيمان الأفراد، وعنوان لكمال عقيدتهم الدينية؛ لأن التعامل مع هذه القوانين عندهم مؤسسة على حكم الحلال والحرام، والسنة والمكروه، وإيمانهم بها مستمد من إيمانهم بواضعها وهو الله.

وهذه الأحكام ترتبط بعقيدة الأفراد وقوتها فى النفوس وتشبع القلوب بها إيمانًا واعتقادًا، فإذا حاول الإنسان انتهاك حرمتها أو تجاوز مبدأ قانونيًا أو قرار ما، فإنه يتردد ألف مرة فى ذلك قبل أن يقدم على الفعل لإيمانه بأن انتهاك هذا المبدأ أو القانون يخدش عقيدته وينال من كمال إيمانه، ويضعه فى موقف مساءلة أمام الله قبل المساءلة أمام القانون أو الحاكم، وتربية الفرد على الإيمان بهذه المعانى الدينية الراقية والمتسامية جزء أساسى من وظيفة الدولة فى الإسلام؛ لأن ذلك يجعل الإنسان حارسًا بنفسه على نفسه، فلا يحتاج إلى مراقبة الشرطى أو غيره.

وذلك يؤدى إلى بناء مجتمع مسئول بنفسه عن إصلاح نفسه، مجتمع حارس لقيمه ومبادئه وليس خارجًا عليها أو معتديًا عليها، مجتمع يبنى ولا يهدم، مجتمع لا يحتاج إلى حراسة الشرطة أو القوانين وإنما يكون هو الحارس لها الآمين عليها؛ لأن ذلك كله مقصد شرعى تفرضه على المجتمع عقيدته ويأمره به دينه.

وهذا النوع من الإيمان المقدس بمسئولية الفرد عن حراسة القوانين لا

نظير له فى أى نظام سياسى آخر؛ سواء كان (مدنيًا أو ليبراليًا أو علمانيًا أو ديمقراطيًا)؛ لأن كل هذه الأنظمة ليس لها مرجعية عقيدية تقدسها، ليس لها مرجعية تؤمن بها، ليس لها مرجعية تؤمن بأن وراء هذا الوجود الدنيوى وجود أخروى دائم يحاسب فيه المرء على ما قدمه من أعماله فى الحياة الدنيا، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره. ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره. هذا المعنى الدينى ليس محل إيمان فى هذه الأنظمة السياسية التى يدعوننا إليها. لا مكان لها ولا مكانة فى الدولة (المدنية والعلمانية والديمقراطية والليبرالية) لأنه لا محل للإيمان بالغيبيات (الله واليوم الآخر) بل هو محض خرافة يجب التخلص منه تحت مسمى التنوير.

وقد أجمعت المصادر والمعاجم التى عرفت النظم السياسية العلمانية بأنها كلها تعمل من أجل الدنيا فقط، وقد صرَّح بذلك سلامة موسى فى كتابه "ما هى النهضة" حيث قال: "ليس وراء الدنيا شيء نعمل من أجله، وإن أوروبا لم تنهض إلا بعد أن تخلصت من هذه الخرافة" هكذا كانت أوروبا، وهذا هو ما يدعوننا إليه.

ليس فى النظم العلمانية مكان ولا مكانة لأى مقدس تؤمن به وتعمل من أجله؛ سواء تسترت هذه النظم باسم (الدولة المدنية أو الليبرالية أو العلمانية). إنها كلها أسماء لمسى واحد هو إقصاء الدين عن شئون الحكم ونظام المجتمع. ولعل من يتابع ما ينشر فى يوميات الأهرام الأسبوعية[١] ، وما يستعمله أصحابها من ألفاظ وعبارات تشين كل ما هو إسلامى، أو من يتابع

(١) خاصة يوميات أحمد عبد المعطى حجازى، وجابر عصفور، وغيرهما.

ويتتبع الوجوه التى تتولى إثم التشنيع والتنفير والتخويف من الدولة الإسلامية على شاشات التلفاز يدرك أننا الآن نعيش مرحلة بيتوا لها بليل، وأخذ بعض القائمين على الإعلام يستنهض همم هؤلاء المتحدثين؛ ليحكموا قبضتهم على كثير من وسائل التأثير فى المجتمع واستحثاثًا له واستعداء وكراهية وتخويفًا من كل ما هو إسلامى. وبات كل حسن يقوم به الإسلاميون عندهم قبيحًا، وكل طيب خبيثًا، وكل كلمة طيبة تخفى وراءها مقصدًا سيئًا، ولا يغيب عن القارئ المتابع لما يجرى من أحداث فى هذه المرحلة التاريخية فى مصر من تنوع المفردات المنفرة واستحداث الألفاظ التى لم نجدها إلا فى قواميس هؤلاء. فالدولة الإسلامية عند بعضهم دولة تسلطية[1] أو هى دولة الملالى أو هى الدولة القمعية. ومبدأ الشورى عند بعضهم يؤسس للتسلط والطغيان[2]، والدولة الإسلامية استدعاء لحياة البادية وعقلية البدو، والحكم الإسلامى عند بعضهم يعنى أن ترجع للتخلف فنركب الناقة بدل الطائرة والسيارة، وإذا أضفنا إلى ذلك استدعاء الإعلام للصوت النسوى لديهم فى هذه الحملة سوف نجد بينهن من تنادى برفض الدولة الإسلامية لأنها دولة ذكورية وحضارتها حضارة ذكورية تقوم على قهر المرأة واقتناص حقوقها و... و... و... إلى الادعاءات والافتراءات التى يروج لها هؤلاء فى هذه اللحظة من تاريخ مصر.

ولا يزال الادعاء قائمًا بأن الدولة الإسلامية هى الدولة الدينية. وقد تحدث كثير من المفكرين، وكتبَ الكثيرُ من العلماء ليبين لهؤلاء وأولئك أن

(١) راجع يوميات الاثنين فى الأهرام.

(٢) راجع يوميات الأربعاء فى الأهرام.

الدولة الدينية لا مكان لها فى الإسلام السياسى، ولا فى السياسة الشرعية فى الإسلام، ولكنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء.

إن الدولة الدينية التى عرفتها الكنيسة فى العصور الوسطى يرفضها الإسلام جملة وتفصيلًا، كما أن الدولة التى يلمحون إليها فى إيران (دولة الملالى) كما يقول بعضهم لا مكان لها فى السياسية الشرعية، فالإسلام لا يعرف الإمام المعصوم ولا يعرف الحكم بالحق الإلهى الذى عاشت به الكنيسة، ولا يعرف الحكم بالحق الطبيعى الذى عرفته أوروبا فى العصور الوسطى، فلماذا الإصرار على إشعال نار الفتنة فى الوطن، ولصالح من تتردد هذه الوجوه المعينة على شاشات التلفاز وفى معظم القنوات؛ لتكرر نفس الأكاذيب وتردد نفس الادعاءات لصالح من؟ ولماذا هذا الإصرار؟ وماذا يريدون لمصر المسلمة.

إن إخوتنا فى الوطن من النصارى أعلنوا صراحة براءتهم من هذه الأصوات حتى لا يتخذونها ذريعة أو حيلة يدعون بها أنهم يحافظون على حقوق الأقليات. فالدولة الإسلامية لا تعرف مصطلح الأقليات، وإنما تعرف مصطلح شركاء، مواطنون، فماذا يريدون لمصر إذن؟

هل يريدون الإعلان فى الدستور أن مصر دولة غير إسلامية؟

هل يريدون أن ينص فى الدستور على أن تناول الخمر حلال ومباح فنحل ما حرم الله؟

هل يريدون أن ينص فى الدستور على جواز زواج المثل؟

هل يريدون أن ينص فى الدستور على إباحة الشذوذ الجنسى تحقيقًا لمبدأ الليرالية والحرية الشخصية؟

هل يريدون أن ينص فى الدستور على أن حق المرأة فى الميراث يجب أن يتساوى مع الرجل؟

هل يريدون تحريم تعدد الزوجات وإباحة العشيقات؟

ماذا يريدون لمصر؟ ولماذا الإصرار على محاربة كل ما هو إسلامى؟ ليست الأسئلة التى طرحتها سابقًا من عندى وإنما هى نفس الأسئلة التى تتردد على ألسنتهم وفى ندواتهم سرًّا وعلانية.

إن هذه الأسئلة هى التى تشغل عقولهم فى الندوات والمؤتمرات تحت شعار الحرية الشخصية التى ينادون بها، كما نادوا بها فى مؤتمر السكان الذى عقد فى مصر فى العقد الثامن من القرن العشرين، ورفض شيخ الأزهر المرحوم جاد الحق أن يوقع بالموافقة على قراراته معلنًا – رحمه الله – أن هذا لن يكون أبدًا وأنا على قيد الحياة، وهى نفس الأسئلة التى عقدوا لها نفس المؤتمرات فى بكين تحت رعاية الأمم المتحدة، وما رفضه شيخ الأزهر فى مصر قد أقره المؤتمر فى بكين، ثم أخذت قرارات المؤتمر تسلل إلى مصر لتجد طريقها إلى التنفيذ فى حراسة النظام السابق وفى غيبة من وعى المجتمع بها ويجعلونها تحت مسمى حقوق الطفل، حقوق المرأة، حقوق الإنسان، وبدأت الآثار السيئة تظهر خطورتها فى الأسرة المصرية على مرأى ومسمع من الجميع.

***

أعود إلى سؤال الهوية لنسأل هؤلاء، ماذا يريدون لمصر، هل يريدون أن تكون علمانية لا دينية. بلا مرجعية دينية حتى يتاح للمشرع أن يرضى رغبات هؤلاء ويسن القوانين والتشريعات التى تشبع رغباتهم؟

إن هويات الأمم وخصوصياتها لابد أن تميزها عن هويات غيرها من الشعوب والأمم الأخرى، تتميز بها فى عقائدها، فى علاقاتها الاجتماعية وفى نظرتها للوجود، وفى قيمها الأخلاقية التى تتجسد فى سلوكها على مستوى الأفراد والجماعات، وتشكل منظومة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ...

وهويتنا الإسلامية لابد أن تظهر وتتجسد فى المعالم والمظاهر العامة لثقافة الأمة لكنها أكثر ما تكون وضوحًا فى:

أ- هويتنا العقائدية.

ب-هويتنا الأخلاقية.

ج-هويتنا الفلسفية.

وسوف أركز الحديث فى هذه القضايا الثلاث وتجليتها لأهميتها من جانب، ونظرًا لما أصابها من غبش وتدليس باستعمال كثير من المصطلحات فى غير مرادها من جانب آخر، وبالإضافة إلى ذلك فإنها تبرز أهم خصوصيات الهوية الإسلامية فى النظرة العامة إلى الإنسان والوجود والأخلاق.

هويتنا الاعتقادية

التوحيد دين جميع الأنبياء:

تأسست العقيدة الإسلامية على التوحيد الخالص لله تعالى، والإيمان به ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، وجسدت عقيدة التوحيد جوهر الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية، والمسيحية، والإسلام، وهى قطب الرحى فى الخطاب الإلهى لجميع الرسل والأنبياء، كلمتهم على ذلك واحدة من أولهم إلى آخرهم، ونداؤهم إليها واحد: ﴿ **يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ** ﴾ [هود:٥٠] خاطب بها كل نبى قومه وأشار إليها القرآن الكريم باعتبارها العقيدة، الجامعة لدين الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ**﴾ [آل عمران:١٩]. وقال سبحانه: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ** ﴾ [آل عمران:٨٥]. كما تواصى بها جميع الأنبياء فيما بينهم، ابتداء من أبى الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد -صلى الله عليهم جميعًا وسلم-قال تعالى:﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة:١٣٢]، وتوارث هذه الوصية ذريته من بعده، فقال يعقوب لذريته: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾ [البقرة:١٣٣]، ودعا بها موسى ربه فقال: ﴿ **رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا**

مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٦]، كما دعا إليها عيسى قومه فقال لهم: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ واستجاب لها الحواريون فقالوا لعيسى عليه السلام: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٥٢]. ومن قبلهم دعا بها نوح عليه السلام فقال لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧٢].

وكانت هذه العقيدة هى الدعوة الجامعة على لسان أبى الأنبياء إبراهيم لذريته من بعده فقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٨]. فاستجاب له ربه وبعث فى الذرية من يحمل لواء هذه الدعوة الخاتمة، دعوة التوحيد ملة إبراهيم حنيفًا، وجاءت الرسالة الخاتمة تصديقًا لدعوة الرسل السابقين إلى التوحيد الخالص لله، وحملت شعار الأنبياء السابقين: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومن ثم فقد استقرت عقيدة التوحيد على أنها دين جميع الأنبياء والمرسلين قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]. كان الاعتقاد فيها والإيمان بها هو الحد الفاصل بين الإيمان بدين الأنبياء قاطبة والجحود بها قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة:١٣٠]، وأصبحت هذه العقيدة أساسًا ومحورًا لكل

تشريع ضابط لحركة الإنسان اليومية فى صباحه ومسائه، فى غدوه ورواحه وفى علاقاته المختلفة سواء فى ذلك علاقته بالله والكون، علاقته بنفسه، وبالمجتمع وما فيه، وجسد الرسول ﷺ هذه الأسس الجامعة فى قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

ولقد بيَّن القرآن الكريم الأصول الجامعة لهذه العقيدة والمسائل المتفرعة عنها. كما أشار فى آياته الكريمة إلى دلائل هذه المسائل، وأقام البراهين على صحتها، فجمع فى آياته بين أصول الاعتقاد، ومسائل الاعتقاد، ودلائل هذه المسائل، ولم يترك لأحدٍ فيها مقالاً بالزيادة عليها؛ أو النقصان منها، واجتمع عليها جيل الصحابة فى عصر النبوة، ومن بعدهم جيل التابعين وتابعو التابعين، وتلقاها خلف الأمة جيلاً بعد جيل عن سلفهم، ينقلها السابق منهم إلى اللاحق، بدون تحريف ولا تبديل، فحملها من كل جيل عُدُولهُ حفظًا لها وعملاً بمقتضاها. مؤمنين بحفظ الله لها فى كتابة الكريم الذى تعهد الله بحفظه وبيانه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩].

أصول العقيدة:

وقد جمع القرآن الكريم أصول هذه العقيدة فى قوله تعالى: ﴿ **لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ**

(١) أخرجه البخارى فى جزء رفع اليدين فى الصلاة للبخارى حديث رقم ٩٣.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفى آخر سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

وفى الحديث المتفق عليه أن جبريل أتى إلى الرسول ﷺ فى صورة دحية الكلبى؛ فسأله: «**ما الإسلام؟، فقال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إلى ذلك سبيلا، فقال له: ما الإيمان؟، فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله اليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره**»(١) .

وأجمعت الأمة خلفًا عن سلف على الإيمان بهذه الأصول، واتفقت عليها كلمتهم وتلقاها الأئمة بالقبول والإذعان فدعوا إليها؛ وحرروا مسائلها وضبطوا أدلتها وبراهينها جامعين فيها بين أدلة النقل الصحيح والعقل الصريح، مهتدين بنور الوحى ونور العقل دون مظنة للتعارض أو التضاد بين النورين، معتقدين أن المؤمنين بهذه العقيدة هم أهل الولاية لله ورسوله، وأن الإيمان بها اسم جامع لاعتقاد القلب ويقينه، ونطق اللسان وإقراره، وعمل الجوارح وإذعانها، وأن يقين القلب بها هو الأساس لعمل الجوارح واشتغالها

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤٣٥/١ ح٣٦٧.

بالأوامر فعلاً، والنواهى تركًا وكرهًا، ومؤمنين أن كمال الإيمان وتمامه؛ لا يكون إلا بالجمع بين أعمال القلب تيقنًا وإيمانًا، وإعمال الجوارح خضوعًا وإذعانًا.

وإن المعاصى لا تخرج المؤمنين عن الملة صغيرة كانت المعصية أو كبيرة؛ ما دام القلب بالله مؤمنًا، وبالأوامر والنواهى مقرًا ومتيقنًا، ولا كفران إلا بجحود ونكران لما هو معلوم من دين الله بالضرورة.

وأهل القبلة هم أهل الملة، يصلى وراء البر منهم والفاجر، ووراء مستور الحال، ولا يقطع على واحد منهم بالجنة أو النار: فـ «**من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم له ذمة الله ورسوله**»(1).

وشفاعة الرسول حق لأهل الملة، تنال أهل الكبائر، فلا يحرمون من شفاعته صلى الله عليه وسلم، قال ﷺ: «**شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى**»(2).

وأصل الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بوجوده سبحانه، والإيمان بوحدانيته وأنه واحد فى ذاته، فلا ند له، وواحد فى أسمائه، فلا مسمى له، وواحد فى صفاته، فلا مثيل له، وواحد فى أفعاله، لا شريك له، وجماع توحيده سبحانه، أن يقر المؤمن بإفراده سبحانه بالعبادة والإخلاص فى القصد فى طاعته فيما أمر ونهى.

وأنه سبحانه أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وأدلة وجوده سبحانه فاقت الحصر فلا يحيط بها عد. فقد فطر القلوب على معرفته، وجبلها على

---

(1) صحيح البخارى ١/٨٣ حديث رقم ٣٨١.

(2) مسند الإمام أحمد ٢٠/٤٣٩ حديث رقم ١٣٢٢٢.

محبته والإيمان به، وجاء الوحى فزاد الفطرة نورا وهداية، ونبهها إلى ما هو مغروز فيها وأصيل فى بنيتها، قال صلى الله عليه وسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[1]، ثم نبه الوحى العقول إلى دلائل وجوده سبحانه، ودلائل وحدانيته بما أبهر العقول، وحير الألباب من الآيات المبثوثة فى الآفاق والأنفس؛ فى كتاب الكون المنظور، وخاطبهم بلغة البرهان ودلائل اليقين: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور:٣٥]، ﴿ **هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾ [لقمان:١١].

كما نبه القرآن الكريم إلى الإيمان بصفات الله العليا، وأسمائه الحسنى، كما ورد بها الذكر الحكيم من غير تحريف ولا تبديل، سواء فى ذلك؛ صفات الذات، كالسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، والحياة، أم صفات الأفعال، كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، أم الصفات الخبرية، كالمجيء، والإتيان، والاستواء.

وأنه تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ** ﴾ [الشورى:١١]، فأثبت لنفسه أصل الصفات، ونفى المماثلة مع خلقه، فيؤمن المسلم بجميع ما وصف نفسه به فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ دون تساؤل عن الكيف فيثبتونها على ما يليق به سبحانه من الكمال والجلال دون تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، وكما أن ذاته ليس كمثلها شيء، فإن صفاته سبحانه

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٠٤/١٢حديث رقم ٧١٨١.

ليس كمثلها شيء، وإن القول في صفاته وأسمائه؛ كالقول في ذاته سبحانه، يحتذى فيها حذوه، فما أثبته القرآن أثبتوه، وما نفاه القرآن نفوه دون سؤال عن الكيفية، فلا يحيط بها وهمٌ، وهم مجمعون على الإثبات بلا تمثيل، والتنزيه بلا تعطيل.

الإيمان بالغيب:

وأجمعوا على الإيمان بكل ما أخبر به القرآن، وجاءت به السنة الصحيحة من أمور الغيب.

ومنها الإيمان بالملائكة، وأنهم عباد الله مكرمون مفطورون على طاعته: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم:٦]، وأنهم مخلوقون من نور، وهم مكلفون بما أمرهم الله به من أعمال، فمنهم حملة العرش: ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ** ﴾ [الحاقة:١٧]، ومنهم حملة الوحي كجبريل: ﴿ **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ** ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، ومنهم ملك الموت، ومنهم خازن الجنان، ومنهم الحفظة، والكرام الكاتبين.

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان بعالم الجن، وأنهم مكلفون، فمنهم المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا** ﴾ [الجن:١-٢] ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا** ﴾ [الجن:١٤].

ومن الإيمان بالغيب؛ الإيمان باليوم الآخر، وبالبرزخ، وعذاب القبر، وأن القبر أما روضه من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وأن القبر أول منازل الآخرة، وللساعة أشراطها وعلامتها؛ منها الأشراط الكبرى، كخروج الدابة، ونزول المسيح عيسى ابن مريم يدعو إلى الإسلام، وقبله نزول المسيخ الدجال، ومنها العلامات الصغرى، كبعثة محمد ﷺ، وتطاول رعاة الإبل فى البنيان.

ومن مسائل اليوم الآخر الإيمان بالبعث والحساب، والجنة والنار، والصراط والميزان، والحوض، لورود النصوص الصحيحة الصريحة بذلك.

الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقضاء والقدر؛ الذى هو سر من أسرار الله فى خلقه، حجب علمه عن النبى المرسل والملك المقرب، فلا يعلمه إلا هو، والإيمان به أصل فى الإقرار لله بربوبيته على خلقه قضاء وقدرًا وتدبيرًا، وإرادة وحكمة ومشيئة، فنؤمن بالعلم الشامل لكل ما كان وما يكون وما هو كائن، وأن كل ذلك مكتوب ومقدر فى اللوح المحفوظ وفقًا لعلمه السابق بذلك، وأن مشيئته نافذة فى خلقه إلى يوم القيامة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فيهدى المؤمنين به تفضلاً منه ورحمة، ويضل من عصاه عدلاً منه وحكمةً، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره، وإن للعباد مشيئة:

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان:٣٠]، وما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم لكن ليصيبه، وما قضى الله به كونًا فهو كائن لا محالة، ولا يجوز لأحد الاحتجاج بالقدر على معصية ارتكبها أو سيئة نالها. لأن تلك الحجة داحضة غير نافعة لأصحابها.

وقد جمع الإمام أبو الحسن الأشعرى وغيره؛ هذه الأصول فى رسالته إلى أهل الثغر لما سألوه أن يبين لهم أصول الإيمان التى أجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولا خلاف بين الأئمة حولها، فذكرها رضي الله عنه مسألة مسألة. فذكر فى مقام الإلهيات ما أجمع عليه سلف الأمة من الإيمان بوجود الله، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، فذكر صفات الذات، والصفات الخبرية، وقال إن صفاته سبحانه كلها على الحقيقة ولا شيء منها على المجاز، لأن المجاز نوع من الكذب[1]، وأن وصفه بها من غير تكييف، وأن الإيمان به واجب وترك التكييف لازم[2]، وأن أمره وقوله غير محدث ولا مخلوق، وهو سبحانه وتعالى يرضى عن الطائعين ويحبهم، ويغضب على العصاة ويسخطهم، وأنه فوق سماواته على عرشه: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ [فاطر:١٠] واستواؤه على عرشه ليس استيلاء لأنه سبحانه لم يزل مستوليًا على كل شيء، وأن المؤمنين يرونه يوم القيامة على ما أخبر سبحانه: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ

(١) انظر: رسالة أبو الحسن الأشعرى، ص ٦٥.

(٢) المرجع السابق ص ٧٢.

نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وإنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا يسأل عما يفعل لأنه سبحانه فعال لما يريد، وإنه عادل فى جميع أفعاله وأحكامه ساءنا ذلك أم سرنا، نفعنا ذلك أم ضرنا، وأنه قدر جميع أفعال خلقه وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم، واثبت ذلك فى اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر:٥٢]، وأنه سبحانه كلَّف عباده فعل الطاعات ونهاهم عن فعل المعاصى بعد أن أقدرهم على ذلك بسلامة الأدوات وصحة الأبدان، لأنه سبحانه عدلٌ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها، وأنه سبحانه تفضل على من يشاء فحبَّب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان تفضلاً منه ونعمة، وأنه لم يضل إلا الضالين والفاسقين والظالمين والكافرين، فهدى من اهتدى، وضل من أضل نفسه بسلوكه سبل الضلالة والغواية، وليس لأحدٍ أن يعترض على الله فى شيء من تدبيره، ولا إنكار شيء من أفعاله، لأنه سبحانه حكيمٌ، قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع أفعاله لا تخرج عن الحكمة، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على الأمة بأيديهم وألسنتهم، إن استطاعوا ذلك، وإلا فبقلوبهم، وأنه لا يجب ذلك عليهم بالسيف، ولا بالقتال، إلا فى اللصوص والقطاع بعد مناشدتهم.

الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم:

كما أجمعوا على وجوب الإيمان بكتب الله المنزلة على رسله، كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن الكريم، وإن إنكار الواحد منها كالإنكار لجميعها، وإن كلها كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن ما نالته

يد التحريف منها ليس مما نزل به وحيه على رسله، وما صح منها يصدق بعضه بعضًا، وأن القرآن آخرها جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب السابقة؛ كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨- ١٩].

وكذلك يجب الإيمان بجميع النبين والمرسلين، ما ورد ذكرهم فى القرآن الكريم تفصيلاً، ومالم يرد ذكره إجمالاً، فلا نفرق بين أحد من رسله، وتكذيب الواحد منهم كالتكذيب لجميعهم، وهم أفضل الخلق وأكرمهم على الله، ومنهم أولوا العزم الذين ورد ذكرهم تفصيلاً فى القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣]

وقد أيد الله جميعهم بالمعجزات الدالة على صدقهم، فى دعوتهم إلى الله برسالاته ووحيه، وأنهم معصومون من الدنايا والخطايا كبيرها وصغيرها بعد بعثتهم، وذلك بحفظ الله لهم وعصمتهم من القبائح، وهم موصوفون بأحسن الأوصاف وأفضلها، من الصدق، والفطانة، والتبليغ، والأمانة، ويستحيل فى حقهم الكذب، والخيانة، والسهو والنسيان فى التبليغ، وشأن الدعوة والرسالة، وهم كبقية البشر يمرضون ويصحّون ويجرى عليهم ما يجرى على غيرهم، من الفقر، والمرض، والأكل، والشرب، والنوم، والزواج، والإنجاب، والحياة، والموت، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف:١١٠].

وهم فى الأفضلية على ترتيب القرآن لهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، أفضلهم أولو العزم، وأولو العزم منهم خمسة أشارت إليهم الآية ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ وأفضل أولو العزم محمد ﷺ وهم جميعًا أخوه علات دينهم واحد وهو التوحيد والإسلام، وأمهاتهم شتى، وخص الله كل رسول بمعجزة تأييدًا له وتصديقًا له فى دعوته، فكانت معجزة إبراهيم فى عدم إحراق النار له، ومعجزة موسى تعددت مظاهرها من العصا واليد، ومعجزة عيسى إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، وكلها كانت معجزات حسية، ومؤقته انقضى أثرها بانقضاء زمانها أما خاتم الأنبياء محمد ﷺ فقد أيده الله بما سبق لإخوانه من الأنبياء بمعجزات حسية، كتسبيح الحصى، وتكثير الطعام، والإسراء والمعراج، ثم أيده بمعجزة معنوية، خالدة خلود الأبد، وهو القرآن الكريم، فوجب الإيمان بها جملة وتفصيلاً.

وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وكل من ولى شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة، واشتدت وطأته من برٍ وفاجرٍ لا يلزمهم الخروج عليهم بالسيف جار أو عدل، وعلى أن يغزو معهم العدو، ويحج بهم ويصلون خلفهم؛ الجمع، والأعياء، والجماعات.

وأجمعوا على أن خير القرون، قرن الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخير الصحابة أهل بدرٍ، وخير بدرٍ العشرة المبشرون بالجنة، وخير

العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة، وأن ترتيبهم فى الفضل حسب ترتيبهم فى الخلافة، أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلىّ، وأن إمامتهم كانت عن رضى منهم جميعًا، وإن جيل الصحابة، خير من جيل التابعين، وأجمعوا على الكف عما شجر بين الصحابة، فلا يذكرون الصحابة إلا بخير، وأنهم أحق أن تنشر محاسنهم، وتتلمس لهم أحسن المعاذير وأفضل المخارج لأفعالهم، وأن نظن بهم الظن الحسن لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا ذكر أصحابى فأمسكوا**»[(١)].

وقوله: «**لا تؤذونى فى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحدٍ ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**»[(٢)] وما وقع بينهم من خلافات دنيوية لا يسقط حقهم فى الفضل والخير.

وأجمعوا على وجوب النصيحة للمسلمين، وأئمتهم والدعاء لهم، والتبرى من ذم أحدٍ من أصحاب رسول الله وأهل بينه. يقول أبو الحسن الأشعرى: "فهذه الأصول التى مضى الأسلاف عليها، واتبعوا حكم الكتاب والسنة بها، واقتدى بهم الخلف الصالح فى مناقبها، نفعنا الله وإياكم باجره، والحمد لله وحده، وهو حسبى ونعم الوكيل[(٣)].

وهذه المسائل التى ذكرها الأشعرى تمثل ثوابت العقيدة الإسلامية التى أجمع على الإيمان بها سلف الأمة، وهذه الأصول الإيمانية لا مجال فيها للقول بالرأى والاجتهاد، وقد حفظ القرآن الكريم لنا هذه الأصول، وتلقتها

---

(١) رواه مسلم ١٨٨/٧ باب تحريم سب الصحابة.

(٢) رواه البخارى بلفظ مختلف ٨/٥ كتاب أصحاب النبى ﷺ.

(٣) راجع الرسالة ص .٩٩

الأجيال بالقبول جيلاً بعد جيل، واستقرت عليها كلمة المسلمين، ولا يجوز لأحد إن يتقدم بين يدى الله ورسوله؛ بالقول فيها بالزيادة عليها أو النقص منها، بل كلهم مجمعون على الإيمان بها، فجزأهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، كما اجتهدوا -رضى الله عنهم-فى بيان أن القرآن الكريم قد جمع فى حديثه عن هذه الأصول الإيمانية بين أمرين منهجيين:

الأمر الأول: ذكر هذه المسائل وبيانها للأمة.

الأمر الثانى: دلائل هذه المسائل وبراهينها، فلم يذكر القرآن مسألة من مسائل العقيدة إلا ذكر معها برهانها العقلى الذى تضمنه دليلها النقلى، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القرآن الكريم، كأدلة القرآن على وجود الله ووحدانيته، ودلائل البعث والحساب، فإن القرآن الكريم يقدم الآية كدليل نقلى معصوم، وفى نفس الآية نجدها تتضمن البرهان العقلى المعلوم.

وذلك كاستدلال القرآن على التوحيد بضرب الأمثلة البرهانية التى هى فى صميمها قياس منطقى ضمنى، وكاستدلال القرآن على وجود الله بالاستفهام الإنكارى المتضمن للإقرار الضرورى بوجود الخالق، قال تعالى: ﴿ **أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ** ﴾، وكاستدلال القرآن على البعث بالنشأة الأولى فإن ذلك قياس عقلى برهانى يسمى قياس الأولى. وهكذا نجد القرآن الكريم حين يذكر مسائل العقيدة يذكر معها دلائلها نقلاً وعقلاً.

خصائص العقيدة الإسلامية

تتميز العقيدة الإسلامية بخصائص باينت بها جميع العقائد الأخرى، وضعية كانت أو سماوية طالتها يد التحريف والتبديل:

[أ] عقيدة ربانية:

من أهم خصائص العقيدة أنها عقيدة ربانية، تكفل الحق سبحانه وتعالى بحفظها من التبديل والتحريف؛ بالزيادة عليها أو النقصان منها، ذلك أن مصدرها هو الوحى من كتاب الله، وسنة رسوله، وقد حفظ الله كتابه الكريم من أن تناله يد التحريف والتبديل كما وقع فى الكتب الأخرى قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ** ﴾ [الحجر:٩]، قد تواترت بها النصوص، وتناقلتها الأجيال محفوظة فى الصدور، ومسطورة فى الكتب، تحوطها عناية المشتغلين بها، يحملها من كل جيل عدو له، يحدوهم فى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟** ﴾ [الحشر:٧]، وقوله: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١].

والرسول ﷺ قد بين لهم هذه الأصول الإيمانية؛ أفضل بيان وأقومه، وقبل أن يموت ﷺ نزل قوله تعالى: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]، فما زادوا، ولا بدلوا، ولا حرفوا، وقال صلى الله عليه وسلم: «**لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ بَعْدِى عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**»(١). فاعتصموا رضى الله عنهم بما جاءهم به

(١) السنة لابن أبى عاصم ٢٦/١ حديث ٤٨.

نبيهم عن ربهم سبحانه وتعالى عن ذاته وصفاته، وعن القدر وأحواله، وعن اليوم الآخر وما جاء عنه. ولم يترك الرسول ﷺ لأحدٍ فى ذلك مقالاً؛ يتقدم به بين يدى الله ورسوله، وكل من قال فى ذلك بغير ما جاء به الوحى المعصوم، فقد قال عن الله وفى الله وعلى الله مالم ينزل به عليهم سلطان، وقال على الله بغير علم، وكل ما تنازع فيه الناس فى ذلك يجب رده إلى الله ورسوله، فجاءت هذه العقيدة بأصولها وفروعها نصًا من كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، فتمسكت بها الأجيال وتناقلها العلماء، محفوظة فى صدورهم بحفظ الله لها، أو مسطورة فى مؤلفاتهم أمنًا وأمانًا لها من التبديل أو التحريف، فهى ربانية المصدر، قرآنية الأصل، مأخوذة من مشكاة أنوار النبوة المعصومة، ونسأل الله أن نموت عليها، وأن نُبعث عليها، وأن تكون حجة لنا لا علينا.

[ب] أنها عقيدة فطرية:

قريبة من القلب، سهلة المأخذ، بسيطة فى تناول قضاياها، بعيدة عن تعقيدات الفلاسفة وجدل المتكلمين، خالية من أسرار الكهنوت وشعوذاتهم وخرافاتهم، ينفتح لها القلب إيمانًا وتقبلاً لها وائتناسًا بها، فلا يحس معها المؤمن بغربة، لأن أصل هذه العقيدة أمر فطرى مغروز فى كل بنى آدم مؤمنًا كان أو كافرًا، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ** ﴾ [الروم:٣٠]، وأشار إلى ذلك الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[(١)]، فعقيدة التوحيد ليست غريبة على

(١) رواه البخارى (٣١٩) ومسلم (٢٦٥٨).

فطرة الإنسان لأنه قد ولد عليها، وتجذرت فى فطرته، والرسل - صلوات الله عليهم-جاءوا ليذكروا بنى آدم بهذه الفطرة.

ومن مظاهر قربها إلى الفطرة، ما تتميز به هذه العقيدة من عوامل التيسير، ورفع الحرج، ودفع المشقة عن الإنسان، مراعاة لظروفه وأحواله. قال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج:٧٨]، وقال سبحانه: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**يسروا ولا تعسروا. بشروا ولا تنفروا، إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»(١).

وهذا الأمر قد فصل القول فيه علماء الأصول والفقهاء، مما يدل على مراعاة هذه العقيدة ظروف الإنسان وأحواله بما جبلت عليه من الإيمان بالله ربًا خالقًا وإلهًا معبودًا، فلم تكن دعوة الرسل غريبة على هذه الفطرة ولا معارضة لها. وجاء فى الحديث القدسى: « **وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»(٢)، أى: حنفاء على ملة الإسلام وعقيدة التوحيد، وقد ربط كثير من العلماء قضية الفطرة بالآية الكريمة: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقد أقر كل بنى آدم لله بالربوبية فى مرحلة وجودية

(١) رواه البخارى (٣٩).

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ٤٠٤/٢ حديث رقم ١١٧٥.

سابقة؛ تسمى مرحلة (الذر) سابقة على الوجود العينى الحسى للإنسان، وكان هذا الإقرار السابق بمثابة الجذور والأساس للفطرة الإنسانية العارفة بربها المقرة له بالتوحيد، ولذلك لم تجد هذه الفطرة غربة فى دعوة الرسل لها بالدعوة إلى الله والإيمان به، وأن ما طرأ على الفطرة من عوامل فساد البيئة من الشكوك والشبهات فإنه قابل للإزالة والشفاء منه. بتقبل دعوة الرسول، ومن هنا كان القرآن شفاء لما فى الصدور، قال الله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس:٥٧].

وكانت دعوة الرسل تذكيرًا بذلك، والقرآن نفسه قد سماه الله تذكرة وذكرى، قال تعالى: ﴿ **كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ** ﴾ [عبس:١١-١٢] وقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق:٣٧]، والقرآن الكريم سمى وظيفة الرسول بالبلاغ والتذكير قال تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، فالفطرة فى الإنسان أساس البناء المعرفى بالله فى الإنسان، والوحى مذكر بما فى هذه الفطرة من معرفة سابقة.

[ج] إنها عقيدة وسطية:

فهى وسط بين عقيدة التجسيم، وعقيدة التعطيل، وكانت الأمة الإسلامية وسطًا بين الأمم بعقيدتها قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة:١٤٣]، فهى وسط

فى مسائل الأصول ومسائل الفروع فلا إفراط فيها ولا تفريط، ولذلك كان الإسلام وسطًا بين الملل الأخرى، سواء كانوا أهل كتاب منزل أم كانوا أهل فلسفات وضعية.

فعقيدتنا وسطية بين اليهود الذين شبهوا الله بالإنسان، فوصفوا الله بالفقر فقالوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨١] ووصفوه بالبخل فقالوا: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾[المائدة:٦٤] والنصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق فجعلوا لله ابنًا وجعلوه إلهًا، أو جزء من إله، أو ثالث ثلاثة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٠].

وعقيدتنا وسط فى النبوة والإيمان بالأنبياء، فإن اليهود فرطوا فى حق الأنبياء: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة:٧٠]، ووصفوا رسل الله بالزنا والكذب والخديعة.

أما النصارى فغلوا فى المسيح وجعلوه إلهًا، يُعْبَدْ من دون الله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ [التوبة:٣١].

أما المسلمون فآمنوا بهم جميعًا؛ على أنهم بشر ورسل اصطفاهم الله لتبليغ رسالته: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٣٦].

وعقيدتنا وسط فى فروع الشريعة، فى مسائل الحلال والحرام، فاليهود قد حرم الله عليهم بعض الحلال بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله؛ قال

تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠]، وفى النصرانية نجد نبى الله عيسى يحل لبنى إسرائيل بعض ما حرَّم الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

أما المسلمون فقد أحلَّ الله لهم كل الطيبات، وحرَّم عليهم كل الخبائث، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ [الأعراف:٣٢]، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية وسطًا بين المغالى فيها والجافى عنها، فالمغالى فيها منبوذ والجافى لها منبوذ والوسطى فيها ممدوح ومأجور.

[د] إنها عقيدة برهانية:

تأسست على البرهان الصادق المؤسس لليقين الجازم، فلا مجال فيها لتقليد الرأى، أو المذهب، أو الشيخ، ولا مجال فيها للكهنوت والخرافة والشعوذة، فالعقل فى عقيدتنا نور من نور الله فى الإنسان، كما أن الوحى نور من نور الله للإنسان والنور لا يضاد النور ولا ينفيه، ولا يعارضه بل يقويه ويرفده ويؤيده، ولذلك كانت العقيدة الإسلامية مؤسسة على الجمع بين نور العقل ونور الوحى، والقرآن الكريم قد جعل العقل فى الإنسان أساسًا للتكليف الشرعى، فلا يكلف المجنون، ولا النائم، لا الصبى قبل البلوغ.

وإذا ذهب العقل من الإنسان سقط عنه التكليف بالشريعة أمرًا ونهيًا، وغنىٌ عن التفصيل هنا حديث القرآن عن العقل وأهميته ووظيفته فى الخطاب القرآنى(١).

ومن المفيد هنا؛ أن نشير إلى أن القرآن الكريم، قد كلَّف العقل بالنظر والتأمل والتفكر فى عالم الشهادة. وجعل ذلك لعالم من سمائه إلى أرضه مجالاً لعمل العقل، وطلب منه الإيمان به، والبحث فيه وصولاً إلى اكتشاف قوانينه، ومن تمام نعمة الله على المؤمنين به أن كل قضية عقدية أمر بها القرآن، ساق بين يديها براهين صدقها ودلائل يقينها، علم ذلك من علمه، وجهل ذلك من جهله، حتى مسائل البعث والحساب، وكان من أظهر دلائل القرآن على ذلك، هو الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية، ولك أن تراجع آخر سورة يس والآيات التى ختمت بها هذه السورة الكريمة، لتقف على دلائل قدرة الله على البعث واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس:٧٨-٨٣].

---

(١) راجع كتاب الوحى والإنسان العدد السادس من سلسلة تصحيح المفاهيم.

فالآيات قدَّمت أكثر من برهان يقينى على إمكان البعث، والحساب والجنة، والنار، وورد مثل ذلك فى القرآن كثير.

واهتم القرآن الكريم بالأدلة العقلية، التى برهن بها على العقيدة ومسائلها بأكثر من صورة، أحيانًا فى صور ضرب الأمثال؛ التى هى فى جوهرها قياس عقلى ضمنى، وأحيانًا فى صورة المقدمات التى يلزم عنها نتائجها بالضرورة، وأحيانًا فى صورة الاستفهام التقريرى وأحيانا الاستفهام الإنكارى، وهذا التنوع فى الاستدلال يتناسب مع تنوع الطبائع البشرية، فلكل عقل مورده المناسب له، وبلغ من اهتمام الإسلام بإقامة البرهان وصحة العقيدة أن إيمان المقلد منهى عنه، وللعلماء فيه كلام يطول شرحه، وتقليد الآباء والعلماء والأئمة حتى فى مسائل الأصول منهى عنه. ومن ظن أن المسلمين يتبنون مسائل العقيدة تبعًا لإمام معين أو تقليدًا لصاحب مذهب، فذلك ظن الجاهلين.

والإمام أحمد بن حنبل وهو إمام فى السلف قد نهى عن ذلك، وقال حكمته المشهورة: "لا يقلد دينك الرجال فإنهم لن يسلموا أن يغلطوا"، لا تقلدنى، ولا مالكًا، ولا الثورى، ولا الشافعى، وكل الأئمة الكبار قد نهوا عن التقليد فى أصول الدين ولا يقبلون كلام العالم إلا مقرونًا بحجته وبرهانه، وجميع سلف الأمة يؤمنون بالبرهان ويجعلونه أساسًا فى بناء العقيدة، ودليلاً على مسائلها، ويحاربون التقليد ويذّمونه، ويجمعون فى مواقفهم بين نور العقل الصريح، ونور النص الصحيح دون مظنة للتعارض أو التناقض.

[هـ] الشمولية:

من أهم خصائص هذه العقيدة أنها شاملة جامعة لأمور الدين والدنيا، فالدنيا فيها مزرعة للآخرة، وسلوك الإنسان فى الدنيا مقدمة ضرورية لحسابه أمام الله فى الآخرة، وجزائه فيها ثوابًا وعقابًا قال تعالى: ﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا** ﴾ [القصص:٧٧]، إنها عقيدة جامعة بين المادة والروح، شاملة لكل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة الدنيا إذا اقترن عمله بنية التقرب إلى الله، فالإنسان إذا تكلم أو سكت، إذا أحب أو كره، إذا قَبِلَ أو رفض، إذا تحرك أو سكن، فإن ذلك كله مشمول بهذه العقيدة قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[١]، وعلاقة الإنسان بالإنسان وبالمجتمع وبالحاكم وعلاقته بالكون وما فيه، يجب أن تكون مشمولة بهذه العقيدة، ولذلك فقد ربط الإسلام سلوك الفرد وعلاقاته المتنوعة بالعقيدة الصحيحة، كما يربطها بالإيمان زيادة ونقصانًا، أو وجودًا وعدمًا. وقد جاءت الأحاديث الكثيرة لتؤكد شمول العقيدة لكل هذه العلاقات قال صلى الله عليه وسلم:

١- «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٢].

٢-« **لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** »[٣].

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣٨٩/٢١ حديث رقم ١٣٩٦٣.

(٣) مسند الإمام أحمد ٢٠٢/٢٠ حديث رقم ١٢٨١٤.

٣- « مَا يُؤْمِنُ مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ »[١].

٤-«من غشنا فليس منا»[٢].

٥-«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم»[٣] الحديث

٦- «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[٤].

٧-«عدلت شهادة الزور بالشرك بالله»[٥].

٨- قِيلَ للنبى ﷺ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «لا»[٦].

كما جسد القرآن الكريم شمولية هذه العقيدة؛ لكل سلوك إنسانى فى شكل الأوامر والنواهى التى جاءت بها الشريعة الإسلامية، قال تعالى:

١- ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل:٩١].

٢- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء:٥٨].

٣- ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن

(١) مصنف ابن أبى شيبة حديث رقم ٢٩٧٦٨.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/٧٤٩ حديث رقم ٢٢٢٥.

(٣) المعجم الأوسط ٣/٩٤حديث رقم ٢٥٩٥.

(٤) المعجم الأوسط ٧/٢٧٠ حديث رقم ٧٤٧٣.

(٥) سنن ابن ماجه ٢/٧٩٤ حديث رقم ٢٣٧٢.

(٦) موطأ الإمام مالك ٢/١٦٩ حديث رقم ٢٠٨٨.

تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة:٢].

٤- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ [الحجرات:١١].

٥- ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة:١].

٦- ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ [المطففين:١،٢].

٧- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ [النحل:٩٠].

٨- ﴿ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى ﴾ [البقرة:٢٦٣].

وعلى سبيل الإجمال، فإن العقيدة الإسلامية، شاملة لكل سلوك أخلاقى سلبًا أو إيجابًا، وكانت القيم الأخلاقية فى مجالها العملى السلوكى تطبيقًا واقعيًا للإيمان بهذه العقيدة، وأثرًا من آثارها، ولذلك كانت الأخلاق فى الإسلام مظهرًا لكمال الدين، وبخاصة كما قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»(١)، وقال: «**ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل**»(٢).

وأُحيل القارئ الكريم؛ إلى الربط القرآنى بين هذه العقيدة وشمولها لكل ما أمر الله به ونهى عنه، قال تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ

(١) مسند البزار ٣٦٤/١٥ حديث رقم ٨٩٤٩.

(٢) الأربعون فى التصوف للسلمى ص٤.

ﱡأَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥١ -١٥٣].

وتكرر هذا فى القرآن كثيرًا حيث تجد الأوامر والنواهى الأخلاقية تلبس ثوب العقيدة الدينية، لتكتسب بها قداستها فى الاعتقاد بها ووجوب تنفيذها، باعتبارها مظهر الكمال الإيمان وصحيح الاعتقاد.

[و] كرامة الإنسان فى حرية الاعتقاد:

احتل الإنسان فى العقيدة الإسلامية مكانة ومكانًا لا نظير لهما فى أى عقيدة أخرى، فلقد كرَّمه الله وجعله خليفة له فى الأرض، وائتمنه على هذا الكون ليعمره بمنهج الله، جاء ذلك فى القرآن الكريم فى صيغة القرار الإلهى الملزم لكل مؤمن بالله ورسوله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الإسراء:٧٠].

وتعددت مظاهر تكريم الإنسان فى القرآن الكريم، وجعل القرآن ذلك

التكريم جزء أساسيًا فى الاعتقاد، فمن مظاهر تكريم الإنسان:

١-أن الله خلقه بيديه وأمر الملائكة بالسجود له، وأن الله سخر له ما فى السموات وما فى الأرض، قال تعالى: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠].

٢-ومن مظاهر تكريم الإنسان: أن جعل الإنسان فاعلاً بحريته وإرادته وليس بمقتضى الطبع، أو الغريزة، وجعله حرًا فى عقيدته لا سلطان لأحدٍ عليها إلا الله، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، أعملوا ما شئتم. وذلك يعد بيان الحجة ووضوح المحجة حتى لا يكون لأحد حجة بعد البيان.

٣-ومن مظاهر التكريم أن الله جعله خليفة له فى أرضه أمينًا على الكون وما فيه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]. فجمع بينه وبين الكون فى صحبة دائمة، ووحدة وجودية، تجلت مظاهرها فى صور متعددة، فمنها وحدة البدء، ووحدة المصير، فالكل خلق من خلق الله، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان:١١].

وتجلت فى وحدة التكوين والعنصر المادى، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح:١٧]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ

﴿ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] فإن عناصر الكون المادى واحدة سواء تشكلت فى هيئة إنسان، أو حيوان، أو نبات، أو حشرة. فالكل أصله ترابى المصدر.

وتجلت هذه الوحدة فى وحدة النظام الحاكم للكل، ووحدة القانون المسيطر على كل ذرة فى هذا الكون، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ [الفرقان:٢]. فإن الحيوان، والنبات، والإنسان، والرياح، والأمطار والأفلاك خاضعة لهذا التقدير كمًا وكيفًا.

وتجلت هذه الوحدة كذلك فى أن مصدر هذا النظام واحد وليس متعددًا. قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف:٥٤]، ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١]. فالذى خلق هو الذى سوى، وهو الذى قدَّر الأمر، وهو الذى يبث الأمر فى المخلوق بقدر معلوم، زمانًا ومكانًا، كمًا وكيفًا، فعالم النبات له أمره، وعالم الإنسان له أمره، وعالم الحيوان وعالم الأفلاك كذلك، لأن الأمر كله لله. هذه الوحدة الشاملة للوجود كله بداية ونهاية، نظامًا وقانونًا، تقديرًا وأمرًا، من شأنها أن تبعث فى الإنسان روح الألفة مع الكون، والمودة مع بنى الإنسان، والتعاون والتواد مع المجتمع كله. وتلك قضية عقدية من خصوصيات الإسلام، وهى على جانب كبير من الأهمية يظهر أثرها جليًا فى العلاقات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان والمجتمع، وبين الإنسان

والكون، فالكل مصدره واحد، ومصيره واحد، وقانونه واحد، وخالقه واحد، ومالك ناصيته واحد، وهذه كلها روافد لتشكيل علاقة المؤمن بغيره، وتؤسس فى القلوب الاعتقاد بوحدة الإنسانية؛ مبدأً، ومصيرًا، وقانونًا حاكمًا للكل، فيسود مبدأ المساواة بين بنى البشر، فكلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود، وتتحقق معجزة الحكمة القرآنية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ويبقى اختلاف اللون واختلاف اللسان واللغة مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، وآية من آيات الله فى خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم:٢٢].

وحرية الإنسان فى الإسلام دين وفريضة فلا عبودية إلا لله، وعلى قدر ثقتك بالله وحسن توكلك عليه تكون قابضًا بزمام حريتك، فلا سلطان لأحد عليك وإذا استعنت فاستعن بالله، وعلى قدر خشيتك له فى الغيب، يخشاك الناس فى الغيب والشهادة، وعلى قدر فناء إرادتك عند رؤية إرادته، يسخر لك ما يحقق لك إرادتك وعند التحقق من عبوديتك له يتحقق لك حريتك مما سواه.

حاجة الإنسان إلى العقيدة

[أ] العقيدة ضرورة اجتماعية:

خلق الله الإنسان وجعله مفطورًا على حب الاجتماع، يألف ويؤلف، وتلتقى كلمة الإنسان مع كلمة الأنس فى الاشتقاق اللغوى تأكيدًا لهذا المعنى، فلفظ الأنس والإنسان والائتناس بينها تقارب فى المعنى والاشتقاق، و يلتقى معهم الفعل أَنس ويأْنس ويأْتنس وكلها تدور حول معنى الاجتماع البشرى الذى يتحقق به وفيه كل هذه المعانى الإنسانية، فحب الاجتماع البشرى خاصّية إنسانية ولهذا نجد علماء الاجتماع يعرفون الإنسان بأنه كائن اجتماعى.

ونزلت الأديان السماوية لتثبت بمبادئها هذا المعنى النبيل، وتعمل على تنميته وشيوعه بين بنى البشر، قال تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٣].

وفى الآثار النبوية: «**إن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»[(١)]، و«**المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»[(٢)]. والرسول ﷺ كان حريصًا على أن يعلم أمته مفاتيح القلوب التى تشيع بها المحبة بين المسلمين، وينتشر الود والتراحم فقال صلى الله عليه

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣١٩/١٣ حديث رقم ٧٩٣٥.

(٢) مسند الشهاب للقضاعى ١٠٨/١ حديث رقم ١٢٩.

وسلم: «**ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم**. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **أفشوا السلام بينكم**»(١).

والاجتماع البشرى لابد أن ينشأ عنه -ضرورة-اختلاف فى الأهواء والرغبات، وتعارض فى المصالح، والنفوس البشرية بطبعها فيها حب الأثرة، وحب الرياسة، وحب العلو فى الأرض، ومن سنن الله فى كونه أن يوجد فيه الشيء وضده، فيوجد الغنى وبجانبه الفقير، والصحيح وبجانبه المريض، والضعيف وبجانبه القوى، والعالم والجاهل، غير ذلك من الأضداد التى تقتضيها سنة التدافع البشرى، ولابد أن تنتج هذه المتضادات اختلافًا فى الآراء، والمقاصد والغايات، وتتعدد وجهات النظر وتتصارع الأفكار، كل فريق يبحث عن مصلحته قبل الفريق الآخر، وهذا أمر واقع ومشاهد فى جميع المجتمعات، قد يسميه البعض بصراع الطبقات كما فى بعض- المذاهب الاقتصادية كالماركسية مثلاً، فهو واقع يعيشه المرء ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التدافع البشرى باعتباره سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ** ﴾ [هود:١١٨].

كما أشار القرآن أيضًا إلى أن هذه السنة ماضية فى الاجتماع البشرى إلى قيام الساعة تقتضيها طبيعة العمران والاجتماع البشرى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ** ﴾ [البقرة:٢٥١]، وقال أيضًا: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ**

(١) سنن ابن ماجه ٢٦/١ حديث رقم ٦٨.

﴿ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا ﴾ [الزخرف:٣٢]. وهذا التدافع هو أحد مظاهر التجمع البشرى فى كل عصر وفى كل بيئة.

وفى وسط هذا الاجتماع البشرى المزدحم بالمتناقضات، فالمصالح متضاربة، والأهواء والرغبات متعارضة، والتفاوت كبير بين مستويات الفقر والغنى، والصحة والمرض، والضعف والقوة، ولابد لهذه المتضادات من ضابط يحكم حركتها لتكون فى خير المجتمع كله، فلا تكون لحساب طبقة أو فئة على حساب أخرى، لابد من ضوابط تنتظم بها العلاقات المتبادلة بين هذه المتضادات، ولابد أن تكون هذه الضوابط متعالية على الأغراض الشخصية أو الطبقية؛ ليتحقق بها الخير لكل الطبقات، ولتسعد بها كل فئات المجتمع، وليس فى مكنة البشر أن يضعوا هذه الضوابط المتعالية عن كل هذه الشبهات، لأن ذلك ليس من طبائع البشر، ولقد أثبت التاريخ والواقع المعاصر أن كل قانون تضعه طبقة اجتماعية حاكمة؛ فإنه يهدف دائما إلى تحقيق مصالحها على حساب الطبقات الأخرى، وكم شقيت طبقات فى المجتمعات البشرية لتسعد طبقات أخرى باسم القانون، وكم قضى أناس سواد ليلهم يفترشون الثرى ويلتحفون العرى ليهنأ غيرهم باسم القانون وكم... وكم عانت المجتمعات البشرية من ويلات القوانين التى يضعها البشر.

ولذلك كان لابد لهذه الضوابط التى تحكم حركة المجتمع أن تكون من مصدر فوق مستوى الشبهات، فوق مستوى الأهواء والمصالح الطبقية أو الفئوية، وهذا لا يتحقق أبدًا إلا إذا كان مصدر هذه الضوابط متعاليًا عن أهواء البشر وأغراضهم، وذلك لا يتأتى إلا من الوحى الإلهى، وما سنه للبشرية من تشريعات لتنظيم جلب المصالح ودرء المفاسد للناس جميعًا، فإن

مقاصد الشريعة وأهدافهما الكبرى، تدور كلها حول هذين الغرضين "**جلب المصالح ودرء المفاسد**"، لكل الناس، الفرد والمجتمع على سواء، وفى ضوء هذه المقاصد الشرعية تتحدد علاقة الأفراد والجماعات، وتنتظم علاقة الفرد بالمجتمع، والحاكم بالمحكوم الرجل والمرأة، العالم والمتعلم، الغنى والفقير، القوى والضعيف، وبعبارة جامعة تنتظم فى ضوئها شبكة العلاقات الاجتماعية لتتوجه حركة المجتمع كله لتحقيق الأهداف الكبرى التى تهدف إليها مقاصد الشريعة، وتسعى إلى تحقيقها فى المجتمع.

لقد فشلت القوانين الوضعية؛ فى تحقيق هذه المقاصد فى المجتمعات، وينبغى أن ننبه هنا إلى أن المقاصد الكلية للشريعة إذا كانت تأخذ الصفة الدينية إلا إنها فى حقيقتها وضعت لتحقيق مصالح المجتمع الإنسانى، فهى مقاصد اجتماعية أضفى عليها الشرع صفة القداسة الدينية بنسبتها إلى الشرع، لتستقر قداستها فى قلوب المؤمنين لتصير هدفًا وغاية يحرص الجميع على تحقيقها من منطلق إيمانه بالعقيدة الدينية، فتكون ممارستها عنوانًا على إيمان صاحبها والالتزام بها.

إنه لا منقذ للبشرية من الاضطراب الذى تعيشه إلا فى الاعتقاد فى أوامر الوحى ونواهيه، والأخذ بها والعمل بمقتضاها، على مستوى الفرد والجماعة وأنظمة الحكم.

لقد كثرت التشريعات وتعددت القوانين، ومع ذلك فإن الجرائم فى زيادة مطردة كمًّا وكيفًا، ومظاهر الفساد تموج بها حركة المجتمع فى كل جوانبه، والسبب فى ذلك كله يرجع إلى عدم المصداقية التى تستمد منها القوانين هيبتها.

إن الوحى السماوى يستمد هيبته من نزاهة مصدره، ويكتسب ثقة المؤمن من يقين المؤمن واعتقاده بعدالة المصدر وقداسته عن الغرض والهوى، إن إيمان المسلم واعتقاده فى ربه ينعكس فى سلوكه التزامًا بأوامر الله ونواهيه، إن العقيدة الصحيحة هى التى تخلق فى المؤمنين نوعًا من الرقابة الذاتية على المرء فى سلوكه والتزامه، فيكون هو رقيبًا بنفسه على نفسه حين يغيب عنه الرقباء، تحقيقًا لمعنى الإحسان الذى أشار إليه الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح حين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١). وفى مثل هذا المستوى، تتجسد مسئولية المؤمن عن ضبط سلوكه وحياته كلها بضوابط الشرع أمرًا ونهيًا، فلا يحتاج إلى رقابة خارجية، وفى هذا المستوى أيضًا تتجسد مسئولية المؤمن عن نفسه، وعن مجتمعه، إن ضوابط المجتمع وأهدافه تتحقق كلها فى حراسة هذه العقيدة الراسخة فى القلب المؤمن بها، وتتجاوز هذه الضوابط دائرة الجائز والممكن اجتماعيًا لتأخذ حكم الحلال والحرام دينيًا لارتباطها بهذه العقيدة، ولذلك نجد الرسول ﷺ يربط هذه العلاقات الإنسانية بضوابطها الشرعية، ويجعلها دليلاً على الإيمان وجودًا وعدمًا، وكم من الأحاديث النبوية التى تجسد لنا هذا المعنى وتربطه بالإيمان ربطًا محكمًا على مستوى علاقات الأفراد والجماعات، قال صلى الله عليه وسلم: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»(٢).

وقال: «**لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث.. وخيرهما الذى**

(١) رواه الخمسة إلا البخارى.

(٢) رواه الترمذى والنسائى.

يبدأ السلام»[1].

«والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن». قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم».

«من كان يؤمن الله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره»[2].

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[3].

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...» [4].

«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[5].

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا»[6].

«إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[7].

«من غشنا فليس منا»[8].

«عدلت شهادة الزور الشرك بالله»[9].

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه البخارى ومسلم.

(٣) رواه الخمسة إلا أبا داود.

(٤) رواه البخارى ومسلم.

(٥) رواه الترمذى وأحمد.

(٦) رواه أبو داود.

(٧) رواه مسلم.

(٨) رواه مسلم والترمذى وأبو داود.

(٩) رواه أحمد والترمذى وأبو داود.

«لن يدخل الجنة عاق لوالديه».

«لن يدخل الجنة قاطع رحم»(١).

«الكلمة الطيبة صدقة».

«لا إيمان لمن لا أمانة له. ولا دين لمن لا عهد له»(٢).

أرأيت كيف ربط الرسول ﷺ هذا المستوى الراقى من المعاملات بأصل العقيدة وهو الإيمان.

إن إيمان المرء بهذا المستوى من العلاقات الإنسانية الراقية يستمد قداسته من سمو الاعتقاد وقوة اليقين بالله، من امتلاء القلب خشية لله ورسوله، من نور الإيمان الذى أضاء حياة المؤمن بهدى الوحى، فانعكس على المجتمع كله بهذه العلاقات الإنسانية. دون أن يفرضها قانون أو يشرعها سلطان أو يحرسها سيف السلطان، بل إن حارسها الوحيد هى عقيدة المؤمن فى الله ورسوله.

وعلى مستوى الحكم ورعاية المجتمع. نجد نصوص الوحى تضيء للإنسان طريق العدل؛ الذى به تستقر الممالك، وتزدهر الحضارات، وتنضبط حركة المجتمع، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ** ﴾ [النحل:٩٠]، ﴿ **وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ** ﴾ [النساء:٥٨]، ﴿ **فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ** ﴾ [المائدة:٤٨]، ﴿ **وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ** ﴾

(١) أخرجه البخارى.

(٢) رواه أحمد.

[المائدة:٨]، ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [سورة ص:٢٦]، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق:٢]، ﴿ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ ﴾ [البقرة:٢٨٣]، ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**». قالها ثلاثًا. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**، وكان متكئًا فجلس ثم قال: **ألا وقول الزور. ألا وشهادة الزور**». وما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وقال صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»(١). وقال فى خطبة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم**»(٢).

وعلى مستوى بناء الأسرة المسلمة. نجد قوله صلى الله عليه وسلم:

«**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير**».

«**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى**»(٣).

---

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه الترمذى.

«خياركم خياركم لنسائهم»[1].

«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».

«تنكح المرأة لأربع لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فاظفر، بذات الدين تربت يداك»[2].

«لا يخطب الرجل على خطبة أخيه».

ونجد قوله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [النساء:١٩]، ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء:٣٥]

هذه نماذج قليلة امتلأت بها كتب السنة النبوية شرحًا وتوضيحًا لما جاء فى القرآن الكريم من ضوابط لحركة المجتمع المسلم الذى يعيش فى نورٍ من هدى النبوة وكلها تتعلق بتنظيم العلاقات الاجتماعية على مستوى الفرد والجماعة لتتحقق بها مصالح الأمة وتدفع عنها مضارها، يلتزم بها المسلم من منطلق إيمانه بالله فيكون المؤمن الفرد هو المسئول عن تطبيقها وهو الحارس عليها أمام نفسه وأمام الله، ولا يحتاج فى ذلك إلى رقيب من خارج نفسه لأنه الأمين عليها.

وهذا الاعتقاد هو الذى يعطى لهذه الضوابط قداستها الدينية وقيمتها

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

ومكانتها الاجتماعية، وإذا لم يكن للقانون الذى يحكم المجتمع رصيد عقائدى فى القلب فلا تكون له هيبة ولا ثقة فيه. وهذا هو الفارق الأساسى بين القوانين الوضعية والأوامر الإلهية، لأن كل قانون يستمد هيبته من مكانة واضعه وصاحبه، ولعل ما يعيشه المجتمع المعاصر من فساد واضطراب؛ يرجع فى الكثير من جوانبه إلى خلل القوانين التى تحكم المجتمع.

إن مسئولية المسلم عن أوامر الوحى ذات شقين، يتمثل الشق الأول منهما: فى كون الإنسان مطالب أولا: بتطبيقها على نفسه وتنفيذ ما جاء فيها، ومطالب ثانيًا: بحماية هذه الأوامر وحراستها من العبث بها، «**فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»، «**ومن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**» وفى رواية «**وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[1].

وتستمد مسئولية الإنسان عن هذين المستويين قوتها من مسئوليته عن قوة الاعتقاد، ويقين الإيمان، فتصونها قداسة العقيدة عن العبث بها، أو الإهمال فيها، أو التفريط فى تنفيذها، وإذا تطرق الخلل أو الإهمال إلى هذه المبادئ فإن ذلك ينال من صحيح الاعتقاد وكمال الإيمان.

وهذا ما تفتقده دساتير البشر وقوانين الاجتماع.

إن شبكة العلاقات الاجتماعية لو تأسست على هذه المبادئ العقائدية فإنها تجعل من المجتمع كله أفرادًا وجماعات حراسًا على هذه المبادئ، فليس هناك طرف مسئول وأخر غير مسئول، فالكل راع والكل مسئول، وكل حسب

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان.

طاقتة، فتشيع المسئولية فى المجتمع كله لأن الكل فى سفينة واحدة كما شبه الرسول ﷺ فى قوله: «**مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»(1).

وقال تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً** ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ومن الملاحظ فى الآية الكريمة والحديث النبوى، أن المسئولية الاجتماعية ليست خاصة بطرف دون آخر، ولا بفرد دون فرد. إنما هى مسئولية جماعية لأن السفينة واحدة، فإن غرقت غرقت بكل من فيها، وإن نجت فإنها تنجو بكل من فيها. وتربية الإحساس بروح الجماعة والمسئولية عنها لا تنهض بها الدساتير ولا القوانين الوضعية، وإنما تتولد وتنمو فى النفوس من قوة الاعتقاد ونور اليقين

[ب] العقيدة حاجة نفسية:

لاشك أن التوازن النفسى من أهم السمات التى تميز الشخصية السوية فى السلوك وفى التفكير، والتوازن النفسى مظهر إنسانى يعمل على إبرازه والتحلى به عاملان مهمان جدًا:

الأول: الاستقرار والأمان والسكينة. وهى علامات ومظاهر خارجية،

(١) صحيح البخارى ١٣٩/٣ حديث رقم ٢٤٩٣.

يلاحظها الناس على الشخص الذى يتميز بهذا التوازن النفسى، وتنعكس هذه المظاهر النفسية على سلوك الشخص وفى حديثه وتفاعله مع الآخرين، وطريقة كلامه. حتى إنك بمجرد أن ترى شخصًا موصوفًا بهذه الصفات وتبدو عليه هذه المظاهر تضفى عليه هذه الصفة "الهدوء النفسى" أو "التوازن النفسى".

أما العامل الثانى: فهو الاطمئنان القلبى. الذى يظهر أثره فى منهج التفكير وطرائق التعبير؛ عما يدور فى القلب من أفكار، وإذا كان العامل الأول يظهر أثره فى السلوك الشخصى فإن العامل الثانى ينعكس أثره على العقل والإدراك، بحيث يتصل العامل الأول بالنفس الإنسانية وآثارها على الجسم الإنسانى، بينما يتصل العامل الثانى بالعقل وطرائق تفكيره فى تحصيل اليقين الذى ينبنى عليه اطمئنان القلب ويقينه، وهذان العاملان من أهم عوامل تحقيق السعادة للإنسان.

ذلك أن النفس الإنسانية تتعدد رغائبها وتتنوع، وتختلف مراداتها وقد تتعارض، فهى لا تشبع أبدًا من تحصيل الرغبات وتحقيق المرادات، وكلما حصلت على رغبة تختطها إلى غيرها وهكذا، لأن هذا من تمام كونها نفسًا، حتى إن بعض العلماء عرَّف النفس بأنها الحركة سواء نطقت نَفْسًا أو نَفَسًا بالسكون أو بالفتح. وذلك باعتبار أن الحركة من لوازم النفس ومن خصائصها. فإذا ما تسلطت حركة النفس على صاحبها واستخدمته فى تحقيق رغباتها التى لا تنتهى فإن حياته تنقلب إلى شقاء أبدى، فيسعى لاهثًا فى تحصيل مطالبها. وهى التى لا تشبع أبدًا، ولكى تستقر حياة الإنسان ويتحقق

لنفسه التوازن المطلوب ليشعر بالسعادة، لابد له من كبح جماح هذه الرغبات. ليس بإماتتها أو محاربتها وقتلها. وإنما بترشيدها وترويض النفس على الاعتدال فى مطالبها، وهذا لا يتحقق للمرء إلا بالسيطرة على نفسه وأن يملك زمامها، والمدخل الطبيعى إلى حسن قيادة النفس هو الاعتقاد بما جاء به الوحى، والإيمان به والعمل بمقتضاه، فتكون أوامر الشرع ونواهيه هى الغذاء الروحى والرياضة النفسية التى تضبط حركة النفس وتقوم المعوج منها، هى الماء العذب الذى يطفئ حرارة الشهوة ويكبح جماحها. هى البرد الذى ينزل بالقلب فيبعث فيه الأمان والاطمئنان والهدوء والسكينة.

وكم لأرباب الرياضات فى مثل هذه المواقف من تجارب وأهوال مع النفس وأسرارها، وكم سهروا الليالى فى تهذيب رغائبها وترويض جموحها، ولم تصح لهم النفس من عللها ولم تستقم من اعوجاجها إلا بتعاليم الوحى. قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ** ﴾ [الرعد:٢٨]، ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩]، وما زالت الدراسات قاصرة عن اكتشاف خصائص النفس وسبر غورها والوقوف على كل صفاتها الذاتية، وكلام علماء النفس حولها يدور كله حول ما ظهر لهم منها، حول مظاهرها السلوكية، حول أحوالها وعاداتها، أمراضها الظاهرة فقط، ولكن هناك مناطق مظلمة فى النفس الإنسانية لا تستطيع اكتشافها ولا سبر أغوارها ولا يحسها إلا صاحبها فقط، وقد لا يحسن المرء التعبير عنها ولا إقامة

الدليل على وجودها. رغم وجدانه لها وخضوعه لآثارها. ولعل من هنا كان اهتمام القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه المناطق المغلقة أمام العقل البشرى فى النفس الإنسانية والتى سماها القرآن آيات وأشار إليها أكثر من مرة. قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]، وفى النفس آيات أيضًا. وقال أيضًا: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت:٥٣]

ونلاحظ فى الآيتين أن النفس جاءت معطوفة على آيات الأرض وآيات الآفاق. لتفيد معنى التسوية والمعادلة بين الآيات فى الجانبين فكأن آيات النفس تعادل فى دقتها وعظمتها آيات الآفاق فى كثرتها وتنوعها كما تعادل آيات الأرض فى نفعها وضررها.

إن اكتشاف هذه المناطق المظلمة فى النفس الإنسانية واستثارة كوامنها لا يتأتى إلا بعطاء الوحى. الذى يعلم خفاياها ويعرف أمراضها ودواءها، إنها العالم الأصغر الذى أقسم به القرآن فى مواجهة العالم الأكبر. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس٧-١٠].

إن النفس الإنسانية بحاجة إلى الوحى لكى يأخذ بيدها إلى شاطئ النجاة، مستعينة فى ذلك بيقين الاعتقاد وسلامة الإرادة ونبل المقصد، وتستمد عونها من الله حتى لا تلعب بها عواصف الأهواء. وقال صلى الله عليه وسلم : «**اللَّهُمَّ لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك**»، وقال بعض الحكماء: نفسك إذا لم تجبرها على فعل الخير والطاعة جبرتك هى على فعل

الشر والمعصية، ولذلك كانت الاستعانة بالله على قهر النفس دعاء نتقرب به إلى الله فى فاتحة الكتاب وفى الصلوات: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

وينبغى أن نعلم أن النفس الإنسانية لا تنتمى فى أصلها إلى عالم الشهادة حتى تستطيع أن تتعامل معها بمنطق العالم الحسى، ولكنها تنتمى إلى عالم الغيب، كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص٧١-٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾. ولما كانت النفس تنتمى إلى هذا العالم الغيبى، كانت عللها وأمراضها غائبة عن كثير من ذوى العقول، خاصة أصحاب هذه العقول التى تعودت على التعامل مع المحسوسات ولم تتجاوزها إلى غيرها، وبالتالى فإن علاج هذه الأمراض النفسية قد غاب عنهم فى معظم الأحيان، وذلك لغيابهم عن فهم حقيقة النفس الإنسانية، ودعك من الذين يعالجون الأعراض المرضية وظواهرها، ثم يتوهمون أنهم بذلك قد عالجوا أمراض النفس.... لا... إن هناك فارقًا كبيرًا بين علاج الأعراض وعلاج الأمراض ذاتها. إن النفس الإنسانية إحدى مواطن التحدى والإعجاز فى الكون كله. ولقد أقسم القرآن بها لأهميتها ولما فيها من مواطن الإعجاز ودقة الصنعة..

والسكينة والاطمئنان من علامات النفس الصحيحة السليمة من الأمراض. وذلك كله لا يتأتى لها إلا بالتعرف على عوامل الاطمئنان والسكينة

من هدى الوحى ومن نور النبوة، وتستمد النفس علاجها لأمراضها من هذا النور الذى هو فى حقيقة الأمر شفاء لما فى الصدور، كما قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال سبحانه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ودائمًا ما ينبه القرآن الكريم إلى الأخذ بمبدأ الوقاية من المرض قبل نزول العلة بالنفس فيستحكم الداء ويستعصى الدواء، ومن أهم هذه الوسائل الواقية اللجوء إلى الله تعالى، والاستعانة به، والإنابة إليه، وحسن التوكل عليه، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك**»، كما كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من شرور النفس فى قوله: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**» ؛ لأن قوة الشهوة وغلبة الهوى لا يعين على التغلب عليها إلا الله، فهو المعين وحده على هوى النفس وقهرها وبذكره وحده تطمئن القلوب وتسكن النفوس، فتعرف النفوس أنه لا ملجأ لها إلا إليه ولا عون لها إلا به.

كما ينبغى أن تعلم أن المجتمع كله فى حاجة ضرورية إلى تعاليم الوحى، ليقوده إلى التعرف على غايته الكبرى، ومقاصده السامية التى تتمثل فى علاقة الإنسان بخالقه، علاقة المخلوق بالخالق، وهذا أمر مقصود من الشارع، أن يتعرف الإنسان على أوامر الله ونواهيه، ليستطيع أن يحقق بذلك عبوديته لله وحده، ليعرف كيف يتخلص من العبودية لغير الله، ليعرف أن كل بنى آدم

أمام الله سواء، تحقيقًا لمعنى العبودية المطلقة للخالق: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم:٩٣].

ليعرف كيف يتحقق فى سلوكه وعلاقاته مع الله ومع الناس بمعانى التوحيد الخالص لله ربوبية و ألوهية، فيستمد عزته من عزة خالقه، وسلطانه من قوة إيمانه بخالقه، فيتضاءل أمامه كل سلطان وعلى قدر اعتصامه بهذه المعانى، فإن الله يخلق هيبته فى قلوب الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر خشيته لله يخشاه الناس، وهذا هو حبل الله المتين الذى قصد الشارع الاعتصام به والالتفاف حوله فتتحد الأهواء، وتتوحد المقاصد والغايات، ويكون هوى الناس تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، وهذا التوحد يعود نفعه على المجتمع بالدرجة الأولى؛ حتى وإن بدا فى ظاهره أنه من العبادات الدينية، فإنه ينعكس أثره على سلوك الأفراد، سكينة فى النفس وأمانًا فى القلب ومودة وتراحمًا بين الناس.

[ج] الوحى حاجة عقلية:

لا ريب أن العقل قد وقف على كثير من المعارف المتعلقة بعالم الشهادة، وكشف العلم عن كثير من أسرار هذا الكون وقوانينه، وأصبح عالم الشهادة أمام العقل أشبه بالصفحة المقروءة التى يتعامل معها العقل؛ فيفهم منها على قدر استطاعته، ولكى يتكامل الموقف المعرفى أمام العقل فإن ذلك لا يتم له إلا إذا عرف العقل الإجابة اليقينية عن الأسئلة المطروحة عليه منذ الأزل. وهى كلها متعلقة بهذا الكون بدءًا ونهاية. من أين؟. وإلى أين؟. ولماذا. وهذه المعرفة اليقينية لا سبيل للعلم إليها لأنها ليست داخلة فى اختصاص العلم

التجريبى، كما أنه لا يملك الإجابة عليها، وقد جرب العقل الإجابات المطروحة حول هذه الأسئلة، خلال موقف المدارس الفلسفية المختلفة فلم يجد فيها أمنًا ولا يقينًا بل زادته حيرة وشكوكًا، فمن قائل بالعبثية المطلقة فى تفسيره للوجود بعامة.

ومن قائل بالصدفة.

ومن قائل بالطبيعة والدهر. وكلها إجابات لم تشف للعقل علة ولم تروِ للسائل غلة.

فكلها تنفى الغاية والحكمة من وجود هذا العالم ولا ترى فيه إلا العبثية المطلقة كما قال الشاعر الجاهلى قديمًا:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته

ومن تخطئ يعمر فيهرم

وقالوا: ما هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع وما يهلكنا إلا الدهر. وكما عبر القرآن الكريم عن موقفهم بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ**﴾ [الجاثية:٢٤].

ولقد ترتب على هذا الموقف الرافض للغاية والحكمة الإلهية، من الوجود والقائل بالعبثية أن فتش هؤلاء فيما تحت أيديهم من أقوال فلم يجدوا للوجود معنى ولا للحياة قيمة، وانعكس هذا التفسير على سلوكهم رفضًا للحياة بأكملها، وهربًا من الوجود الذى لا معنى له، فكان الانتحار هو المخلص لهم من هذا الوجود العبثى.

والعقل السليم يرفض هذا التفسير ويأباه، وليس ذلك من باب المصادرة على أراء الآخرين. وليس من باب وضع العربة أمام الحصان كما يسميها البعض، ولكن القضية أمامنا أشبه بالكتاب المفتوح، فمن أراد أن يقرأ بعقل واعٍ خالٍ من الشبهات فعليه أن يطالع صفحة الكون، وأن يتأمل فى كل جزئية منه بدءًا من نفسه هو ومن جسمه هو، ومن حبة القمح التى يزرعها ويأكلها، فإنه يجد لا محالة أن كل شيء فى الكون موظفًا لأداء غاية مطلوبة ولحكمة مقصودة للخالق سبحانه، وكل فرد من أفراد العالم يتناغم مع غيره فى تناسق عجيب لأداء وظيفة كلية للكون بأسره، فالجماد بعناصره الأساسية موظف لخدمة النبات.

والنبات بما يحتويه من مواد غذائية موظف لخدمة الحيوان.

والحيوان موظف لخدمة الإنسان.

وكل فرد من أفراد هذه العوالم المتنوعة. تجد كل جزئية فيه تتكامل مع غيرها لأداء وظيفته الخاصة به بحيث تجد أفراد العالم كلها تتعاون فيما بينها وتتكامل لأداء وظيفة مقصودة وتحقيق غاية مطلوبة.

وهذا التكامل ليس قاصرًا على ما نشاهده فى عالمنا الأرضى فقط، وإنما هو أشد ما يكون ظهورًا فى عالم الأفلاك: ﴿ **لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس:٤٠]، ﴿ **وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ** ﴾ [يس:٣٨]، ومن أراد شيئًا من المعرفة بعلم الفلك وما يطالعنا به من آيات باهرة فى دقة النظام الكونى

فليراجع ما اكتشفه العلماء من ذلك مما يبهر العقول(١). عَلِمَ ذلك من علمه، وجَهِلَهُ من جهله والأمثلة الدالة على ذلك تخرج عن الحصر:

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الخالق

فإن عين الإنسان لا تقع على شيء فيما حوله إلا هو ناطق بما لله فيه من حكمة مرعية وغاية مقصودة، ولقد عبر القدماء من مفكرى الإسلام عن هذا الأمر الأهم فى عبارات واضحة وأدلة برهانيه، فلقد أشار إلى ذلك أبو الحسن الأشعرى فى رسالته إلى أهل الثغر. وجعل جسم الإنسان نفسه آية دالة على ما لله من قصد وغاية فى خلق أعضائه على هذا النحو، الذى تتعاون فيه وتتكامل لأداء وظيفة الإنسان، فخلق العين فى مقدمة الرأس وليس فى المؤخرة، وخلق السمع والشم والذوق التى هى وسائل الإدراك على هذا النحو التكاملى، مما يدل على أن هناك فاعلاً حكيمًا وأن له غاية وقصدًا فيما خلق، مما ينفى القول بالعبث أو المصادفة، قال تعالى: ﴿ **وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١]

ولقد أشار ابن رشد إلى هذا المعنى وسماه دليل العناية، واستدل على ذلك بآيات الذكر الحكيم، ولا شك أن العناية بالمخلوق تتضمن القصد والحكمة للخالق، مما ينتفى معه القول بالعبثية، إن العقل لم يجد فى مذاهب الفلاسفة برد اليقين كما أشار إليه أبو حامد الغزالى، بل زادته آراؤهم حيرة واضطرابًا، هذا من جانب الفلسفة و الفلاسفة.

---

(١) راجع فى ذلك الله يتجلى فى عصر العلم، الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، وكتابات الدكتور زغلول النجار ومحاضراته الرائعة فى التلفاز حول هذه القضية.

أما فى جانب العلم واكتشافات العلماء فلا شك أن الإنسان تتملكه الدهشة ويستولى عليه العجب لما قطعه العلم من أشواط ومسافات كبيرة فى اكتشاف مجاهل هذا الكون، فكم من قوانين كونية اكتشفها العلماء. وكم من الظواهر الطبيعية أدرك العلماء أسبابها والعلاقات المتبادلة بينها وبين أسبابها، فعرفوا كيف يوظفون الكون ويسخرون هذه القوانين لصالح البشرية أحيانًا، ولدمارها أحيانًا أخرى، ولا شك أن ذلك كله فى ميزان العلم والعلماء، وكلما ازداد العلماء اكتشافًا لغوامض الكون ودقائقه يزداد علمهم بمدى الجهل والغموض الذى يحيط بهم فى هذا الكون، ولا شك أن كل كشف علمى جديد يعتبر إضافة لرصيد المعرفة الإنسانية بالكون، وفى نفس الوقت يعتبر كشفًا عما كان يجهله العقل، وهكذا تتوالى الكشوف العلمية التى تحمل معها مدى المساحة الشاسعة التى يجهلها العقل ويعرف منها كل جديد.

ومع كثرة هذه الكشوف وأهميتها بالنسبة لحياة الإنسان، إلا أنها فى مجموعها تتعلق بظواهر الكون وتفسير علاقات أفراده، قال تعالى: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ**﴾ [الروم:٧].

ومع كثرة هذه الكشوف؛ إلا أنها لم تفسر لنا لغز الحياة ولا سر الوجود، وهذا ضلع المثلث الذى لا يكتمل الموقف المعرفى للعقل إلا به والكشف عنه والاعتقاد فيه. إن العلم مع كثرة كشوفه لم يحمل لنا إجابة شافية للعقل من حيرته حول هذه الأسئلة.

من أين؟. إلى أين؟. لماذا؟ والذين اكتفوا بالموقف الفلسفى المادى فى

تفسيرهم للوجود ورفضوا الإصغاء لصوت الوحى لم يجدوا لهم بـديلاً عنـه إلا القول بالعبثية. ودخلوا بذلك فى نفق الإلحاد المظلم الذى كانـت نهايتـه إمـا الانتحار وإما الارتماء فى أودية الحيرة والضلال، وهم بذلك لم ينـصروا حقًـا ولم ينصفوا عقلاً.

إن سر الوجود لم يكشف عنه العلم لأن ذلك ليس من وظيفة العلـم، ولا من مهمة العلماء، لأن مهمة العلم هى الكشف عن القوانين التى تحكم علاقة الظواهر الطبيعية؛ وكيف يفيد الإنسان منها، كيف يسخرها لصالحه.

إن مهمة العلم وصف الظواهر بحيث يبين لنـا مـا هى. وكيـف حـدثت الظاهرة، وأنه يبين لنا الإجابة عن السؤال ما هذا؟ ولكن لـيس لدى العلـم إجابة عن السؤال لماذا كان هذا الوجود أصلاً. ولماذا كان هذا الوجود على هـذه الكيفية دون غيرها، إن العلم يضع أمام الإنـسان مـشاهدات للوقـائع الـتى يتعامل معها فى كشوفه العلمية، ولكنه لا يحمل الغاية منها، فالإنسان يأكـل الطعام. ويعرف الطبيب كيف يتحول الطعام فى جسم الإنسان إلى طاقة عـن طريق الهضم والتمثيل الغذائى خلال الجهاز الهضمى، ودوره المعروف للأطبـاء فى هذه العملية، ولكن لا يعرف الطبيب لماذا تتحول هذه الطاقـة فى العـين إلى قوة باصره، ولا يعرف لماذا تتحول هذه الطاقة فى الأذن إلى قوة سامعة، ولا لماذا تتحول هذه الطاقة فى اليد إلى قوة باطشة، ولا لماذا تتحول فى الإنسان إلى قوة مدركة عاقلة، ولم يتساءل عنها الطبيب لأنها أصلاً ليـست مـن مهمـة العلم، ولو سألت طبيبًا لم تتوزع الأغذية فى بـدن الإنـسان إلى طاقـة تـؤدى دائمًا إلى وظائف محددة فى كل عضو من أعضاء الجسم، وأن هذه الوظائف لا تتخلف أبدًا إلا لعلة طارئة؟ أو كيف تنظم هذه الطاقة وظيفتها فى كل كائـن

حى. حتى يطير بها الطير فى السماء ويسبح بها السمك فى الماء، ويعيش بها الإنسان على وجه الأرض لكانت إجابة الطبيب عن هذه الأسئلة، إن ذلك ليس داخلاً فى مهمة العلم، إن العلم يصف ما يحدث، وليس من مهمة العالم أن يتكلم عن لماذا يحدث؟

إن معرفة العلل الغائية لهذا الوجود سر لا يكشف عنه إلا الوحى، لأن العلم كما قلنا يتكلم عما يحدث ولا يعنيه التحدث عن العلة الغائية التى هى إجابة عن السؤال... لماذا؟ ولا راحة للعقل إلا باكتمال الموقف المعرفى لديه، وإذا كان العلم قد كشف له عن كثير من دقائق هذا الكون وأسراره، فيأتى دور الوحى ليقول للعقل ما عجز عنه العلم، ويعرفه بأسباب هذا الوجود، ويكشف له عن غاياته وأهدافه. حتى لا يقع العقل فى أودية الحيرة وضلال العبثية. وصدق الله العظيم: ﴿ **وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء:٨٥]، ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ** ﴾ [الروم:٧] ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الدخان:٣٨ - ٣٩].

إن الوحى هو الذى يقدم للعقل تفسيرًا مقنعًا لعلة الوجود وغايته، والوحى هو الذى يقول للعقل إن هناك حياة آخرة بعد الحياة الدنيا، يكتمل بها حكمة الوجود الإنسانى، يكتمل بها الموقف المعرفى للعقل، يكتمل بها منظومة الوجود كله فى ضوء من العدل الإلهى الذى به يكون للوجود معنى، وللأخلاق أثرًا فى سلوك الإنسان.

إن الوجود الإنسانى لو كان قاصرًا على هذه الحياة فقط؛ لكان وجود

الإنسان فيها هو البؤس بعينه، ولما كان للوجود معنى ولا للحياة قيمة، فحياة الإنسان تحيط به من كل جانب بما يدعو إلى الإشفاق، فما أكثر الآلام والأمراض، وما أكثر المظالم والطغيان، وما أكثر عوامل القهر والتسلط بين بنى الإنسان، فالقوى متسلط على الضعيف، والغنى متسلط على الفقير، والحاكم متسلط على المحكوم، وكم من مظاهر الفساد والإفساد فإذا لم يكن هناك حياة آخرة يقتص فيها للمظلوم من الظالم، وللضعيف من القوى، وللشعوب من حكامها، لكان الوجود كله عبثًا. وهذا ما يرفضه العقل وينفيه النقل. قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾ [المؤمنون: ١١٥- ١١٦]. ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص:٢٨]. ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [العنكبوت:٢،٣]. ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء:٤٧]. ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:٢٨١].

إن قيمة الحياة الإنسانية لا يكون لها معنى إلا فى الاعتقاد بما جاء به الوحى من الإيمان باليوم الآخر كضرورة دينية وأخلاقية معًا، عبَّر عنها القرآن الكريم فى أكثر من آية.

وهذا الأمر ليس من مهمة العلم الكشف عنه، وليس من اختصاص العلماء البحث فيه، وإنما هو نور الوحى وهداية الأنبياء، لكى يؤمن المرء بعدالة الخالق بين عباده، والتى عبَّر عنها كثير من الأحاديث الصحيحة، حتى إن الله يقتص للشاة العجماء من الشاة القرناء. وإذا كان ميزان العدالة قد اهتز فى يد البشر فى حياتهم الدنيا، فإنه غير قابل للخلل فى يد الخلق سبحانه، وكل هذه المعارف الدينية لا سبيل إليها إلا بطريق الوحى. فتسكن النفوس من حيرتها وتطمئن القلوب. حيث يجد المظلوم والضعيف والفقير ما وعدهم ربهم حقًا فى الآخرة، كما آمن بمصداقية الوحى فيما أمر به ونهى عنه فى الدنيا.

ومن المفيد فى هذه الدراسة أن نوضح هذه القضية التى تحوم حولها بعض الشبهات؛ من الذين يرون أن العلم قد أغنانا عن الوحى، وأنه حل لنا المشكلات التى عانت منها البشرية قديمًا والتى جعلتها تفكر فى الاستعانة بالوحى لحل هذه المشاكلات، أما الآن وقد حمل لنا العلم حلول هذه المشكلات، فلم تعد البشرية فى حاجة إلى هذا اللون من الاعتقاد فى الغيبيات.. هكذا يقولون.

وقد ينادى بعضهم فى الاستدلال على صحة موقفه هذا، فيحاول أن يخضع النصوص القرآنية لما يسميه بنقد النص، أو تأويل النص، أو إعادة قراءة النص قراءة عصرية، أو إعادة التفسير فى ضوء الواقع أو... أو... إلخ ما يقولون.

ولو خاطبنا هؤلاء بلغتهم لقلنا لهم: إن العلم لا ينكر الوحى ولا يتضمن

العلم نفيًا للوحى ولا إنكارًا للنبوة. بل على العكس قد فتح العلم بكشوفه الرائعة عن حقائق كانت فى طى الغيب قربت للعقل إدراك ما كان يظنه مستحيلاً. أو غير مقبول فى تصوره.

وقضية الوحى فى أساسها لا يملك العقل برهانًا على إنكارها، فهى فى أصل ثبوتها ليست مما يحيله العقل ولكنها ليست مما جرت به العادة بين العقلاء، وهذا أمر لازم لها، فهى ليست من قبيل العادات ولا الأعراف التى تعود الناس على معايشتها؛ حتى يتقبلوها بسهولة، ومن هنا كانت محل إنكار من الكافرين بقضية النبوة، والسبب الرئيسى فى هذا الإنكار هو عدم التعود على مشاهدة هذه الحالة، وهناك فارق كبير بين المستحيل العقلى والمستحيل عادة. ومن الخطأ منهجيًا أن يحمل الناس المستحيل العادى على المستحيل العقلى، وهذا يفسر لنا موقف المشركين من الرسل جميعًا حين دعوهم إلى الإيمان بهذا الوحى، فقالوا للرسل: ﴿ **مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ** ﴾ [يس:١٥]،وقالوا: ﴿ **إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ** ﴾ [إبراهيم:١٠]، وقالوا: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ** ﴾ [الحجر:٦-٧]، وقالوا:﴿ **وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ** ﴾ [المؤمنون:٣٤]، ﴿ **وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا** ﴾ [الفرقان:٧]، ﴿ **لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ** ﴾□**عَظِيمٍ**

[الزخرف:٣١].

وقالوا غير ذلك: كثيرًا، وعند تأملنا هذه الاعتراضات الواردة على الرسل نجد سببها هو مخالفة هذا الأمر لما تعودوه وتعارفوا عليه من ألوان المعرفة العادية، ولما كانت الكهانة والسحر من الأمور الشائعة بينهم فقد نسبوا الوحى إلى هذه الظاهرة، فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر، وقالوا للرسول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر:٦].

وفرعون -قديمًا-لم يجد عنده ما يعارض به نبى الله موسى إلا اتهامه بالسحر، ولذلك جمع له كبار قومه فى فنون السحر. ولما وقفوا على حقيقة ما مع موسى عليه السلام أدركوا أنه ليس من جنس بضاعتهم، ولهذا كانوا أول من آمن برب العالمين رب موسى وهارون، وقال فرعون لهم: ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء:٤٩]، إلى غير ذلك من وسائل التهديد بالعذاب والهلاك فما كان جوابهم إلا أن قالوا لفرعون: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه:٧٢:٧٣]. وعلى هذا النحو كانت قضية الرسل مع أقوامهم فالنبوة أصلاً أمر غير عادى.

والوحى كوسيلة معرفية غيبية أمر غير عادى، ودعوى الأنبياء أنهم يخاطبون بوحى من السماء أمر غير عادى، ودلائل صدق الأنبياء من الآيات والمعجزات أمر غير عادى، ولكن السؤال الضرورى هنا هل لأن هذه الأمور

كلها فوق عادة البشر تكون بالضرورة مما يحكم العقل باستحالتها؟.

الجواب هنا بالقطع لا. فإن العقل لا يحكم باستحالة هذه الأشياء. ومن يملك برهانًا قاطعًا على القول بأن هذه الأمور مستحيلة عقلاً فليظهره.

إن كل ما يدعيه الرافضون للوحى أنهم لا يعرفون دليلاً عليه، ولا يملكون برهانًا على صحته.. وقد يضيفون إلى ذلك دعواهم أن هذه القضية لا تخضع للتجربة الحسية وبالتالى فهى ليست قابلة للصدق.

وهذا أقصى ما ينبهون إليه من دعاوى الإنكار. ولكن من قال: إن عدم معرفتهم بدليل نزول الوحى يعتبر دليلاً على عدم وجوده؟

من قال إن عدم وجدان الدليل دليل على عدم وجود الدليل فى نفسه؟

وهل إذا جهل بعض الناس دليل نسبة كتاب المنطق لأرسطو، أو لم يعلم أصلاً بوجود أرسطو كفيلسوف هل عدم علمه بوجود أرسطو يلغى وجوده فى نفسه، ويعتبر ذلك دليلاً كافيًا على صحة قوله.

من الذى قال إن التجربة هى الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة الرأى أو خطئه. إن هناك كثيرًا من المعارف اليقينية لا تخضع فى ذاتها للتجربة ولا يملك أحد إنكارها.

نعم إن التجربة مسلك علمى صحيح لا يشك أحد فى نتائجها إذا استوفت شروطها العلمية، لكن التجربة ذاتها لها عالمها الخاص الذى يخضع لها وتعمل فى دائرته وحدوده، لكن التجربة لا تحمل معها دليلاً على أن كل ما لم يجرب من المعارف لا يكون صحيحًا، إنها لا تنفى وجود الأشياء التى لم نجربها كما لا تنفى قياس أشياء لم نشاهدها؛ على أشياء شاهدناها تجريبيًا. وهذا فى حد ذاته كاف للحكم عليه بما شاهدناه فى نظيره ومثيله. وهذا هو

القياس العلمى وهو كالتجربة المباشرة تمامًا فى إفادة اليقين، والتجربة لا تعتبر حقيقة علمية لمجرد إننا شاهدناها، والقياس عليها لا يعتبر باطلاً لمجرد أنه قياس.. وقد توصل العلم إلى اكتشاف كثير من الوسائل المعرفية التى قربت إلى الأذهان إمكان الوحى عقلاً كوسيلة من وسائل المعرفة، ولعل ما أورده بعض العلماء المهتمين بهذه القضية من أمثلة الاختراعات الحديثة والكشوف العلمية ما يبرهن على صحة هذه القضية[1].

---

(١) راجع فى هذه الأمثلة: الإسلام يتحدى. وحيد الدين خان ص ١٥٠-١٦٠ حيث نقل أمثلة كثيرة عن الإنسان ذلك المجهول، الله يتجلى فى عصر العلم، العلم فى منظوره الجديد.

هُويَّة الأخــلاق الإسلامية

رؤية مقارنة مع الفلسفات الوضعية

[١] الإنسان أخلاقى بفطرته:

أجمع المثاليون من علماء الأخلاق ومـنهم فلاسـفة الإسـلام على أن الله تعالى قد خلـق الإنـسان وزوده بغريـزة أخلاقيـة تـسمى البـصيرة ، تـساعد الإنسان على التفرقة بين الخير والشر فى الأفعال ، والحق والباطل فى الأقـوال ، وتعمل على تحصيل النافع للإنسان ودفع الضار عنه ، كما يستطيع بها الإنسان أن يصدر أحكامًا يقيم بها أنواع السلوك المختلفـة فيمـيز بهـا بـين الـسلوك المنحرف والسلوك السوى المعتدل.

وهذه الغريزة هى الفطرة التى ولد عليها الإنسان ، وبهـا يواجـه عمليـة الاختيار بين البدائل أو الانتقاء فيحصل على ما يلائم الطبع ويبتعد بها عمـا ينفره عنه ، ونور هذه البصيرة لا ينطفئ أبدًا ، لكنه قد يغيـب أو يخبـو عنـد فترات ضعف الضمير أو غيبته ، وسرعان ما يشتعل نورهـا فيـضئ للإنـسان جنبات الحياة وذلك عند إحساسه بما يسمى بوخزات الـضمير أو يثـور عنـده إحساس الشعور بالألم والندم عنـدما يرتكـب بعـض الجـرائم أو الأفعـال المخلة بالشرف والأمانة ، ومهما بلغت درجة انحراف الإنسان فى سلوكه فإنـه يجد نفسه مضطرًا فى بعـض الأحيـان إلى الاعـتراف بحـب الخـير وتقـديس الفضيلة فى ذاتها ، وإن أعوزته الشجاعة إلى الارتفاع إلى مـستواها وممارسـة

السلوك الفاضل ، ومما لا شك فيه أن رؤية أى سلوك هابط أمامنا يثير لدينا نوعًا من الاشمئزاز والنفور وسرعان ما نجد أنفسنا نصدر أحكامًا تلقائية بإدانة هذا السلوك الهابط واستحقاق صاحبة العقاب.

ومن آثار هذه البصيرة الأخلاقية أننا نكره فى أنفسنا عيوبنا الذاتية ، وإذا كنا نبذل كثيرًا من الجهد فى تصحيح أخطائنا فإننا سرعان ما نتلمس المعاذير لتبرئه أنفسنا مما قد نحكم عليه بأنه خطأ أو يعتقد الآخرون أنه سلوك سيئ هابط. كما قد نشعر أحيانًا بنوع من الخجل والخزى عندما تعرف الجماعة التى يعيش معها الإنسان أنه قد ارتكب جريمة أو خدش وجه الفضيلة بسلوكه الهابط ، وهذا الشعور مصدره الإحساس الداخلى الذى يستمد أساسًا من نور هذه البصيرة الفطرية التى زود الله الإنسان بها.

الفطرة والوحى:

والقرآن قد اعتمد على هذه الفطرة فى كثير من الآيات وتأسس خطابه القرآنى على هذا الشعور العام، وذلك الإحساس الذاتى القادر على التمييز بين أنماط السلوك المختلفة ومعرفة الخير من الشر والعدل من الظلم ، كما اعتبره أساسًا فى إقامة النظام الخلقى للفرد والجماعة ، واعتمد عليه فى عرض القضايا العامة على المسلمين ، فالرسول يأمر المؤمنين بما سبق أن أمر به جميع الرسل السابقين قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ** ﴾ [الأعراف:١٥٧] و ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ**

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ﴾ [النحل:٩٠] و ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الأعراف:٢٩] و﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف:٣٣] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ﴾ [المؤمنون:٥١] و﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء:٧٣] إلى غير ذلك من الآيات التى تخاطب المسلم من جانبه الوجدانى الذى ينبع من الضمير الأخلاقى فى التمييز بين الخير والشر. وإن هذا الشعور عام ومشترك بين جميع الناس فإن القرآن يقدم لنا الواجبات الأساسية التى ترتكز على هذه الفطرة الغريزية على أنها دعوة كل الرسل السابقين ومهمتهم وسبيلهم المستقيم. فلقد أمر الله كل الرسل بإقامة ميزان العدل والقسط ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥] وأمروا أن يكسبوا رزقهم من الحلال ويعملوا صالحًا.

وليس من الصدفة العارضة أن محمدًا ﷺ يدعو إلى ما سبق أن دعا إليه جميع الرسل السابقين ولكن هذا يبين لنا أن هناك قدرًا مشتركًا بين دعوة كل الرسل، وهذا القدر يتمثل أساسًا فى المبادئ الفطرية العامة التى لا تخضع لعوامل البيئة والثقافة ، فالرسل جميعًا أمروا بالأكل من الطيب وفعل الخيرات. والأمر بالمعروف والنهى عن الفحشاء والمنكر، والقرآن لا ينقل لنا مبدأ أخلاقيًا دعا إليه هذا الرسول أو ذاك إلا ويشير إليه فى موضع آخر على أنه واجب تلتزم به الجماعة الإسلامية. ولهذا قال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

[النساء:٢٦] ويقول فى مخاطبة الرسول: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠].

ولو نظرنا فى المبادئ الأخلاقية الكبرى التى جاءت بها التوراة والإنجيل وقارناها بما جاء فى القرآن من ذلك فإننا نجد أن القواعد الأساسية الأخلاقية التى دعا إليها جميع الأنبياء واحدة كالعدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإحسان إلى الغير والصدق والأمانة وغير ذلك من الأمور التى تمثل دعائم البناء الأخلاقى فى دعوة كل رسول (١) وهى كلها أمور تميل إليها الفطرة السليمة وتسعى إلى تحقيقها لأنها تلائم ما طبعت عليه أزلًا من معرفة الحق ومحبة الخير.

والله تعالى قد منح الإنسان هذه الفطرة ليتمكن بها من تحقيق مصالحه وما فيه من نفعه ودفع ما يضره ، وأعانه على ذلك بأسباب ظاهرة وباطنة ، ومهد له الطريق ثم أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان ما غمض وتفصيل ما أجمل ، وأزال عنه كل علة يحتج بها على الله؛ لأن كثيرًا مما ينفع الإنسان أو يضره لا علم له بتفصيله إلا عن طريق الوحى والرسل ، فهناك إذن عاملان يكمل أحدهما الآخر. عامل الفطرة وعامل الشريعة. والعامل الأول (الفطرة) هو الذى يجعل القلب متفتحًا لتقبل العامل الثانى، لأن ذلك من مقتضاها . فالله قد فطر عباده على معرفة كل حق ومحبة الخير ، وأول ذلك

(١) انظر : رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية – ضمن مجموعة شذرات البلاتين – ط أنصار السنة – ص٢٤، ودرء تعارض العقل والنقل ٤٤١/٨ (حديث الفطرة)، ومدخل إلى القرآن الكريم. د. محمد عبد الله دراز، والفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام – د. محمد السيد الجليند.

معرفته سبحانه ومحبته وتأليهه والإقرار بربوبيته ، لأن معرفته سبحانه بداية كل خير وحق وأصل لذلك. قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟». قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم:٣٠][1] . وفى صحيح مسلم: «خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطانًا»[2] فالرسول يخبر أن كل نفس مفطورة على الإقرار لله بالإلهية ومحبته وعبادته، وأن هذه الفطرة عامة فى كل من يخضع لله بالعبودية. والعبودية هنا صفة كونية تعم الجميع ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣]. والفطرة إذا فسدت أو تحولت عن الحق أو ضلت سبيلها عن معرفة الخير فإن ذلك يكون لعارض طارئ عليها من خارج ذاتها كما أشار صلى الله عليه وسلم : «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». وهذا يتمثل فى عامل الشهوة والغفلة أو الجهل والهوى ، فالغفلة والشهوة أصل من أصول الشر فى الإنسان. والهوى لا يستقل وحده كدافع على ارتكاب الشر بل لابد معه من عامل آخر كالجهل. وإلا فصاحب الهوى إذا علم قطعًا أن ذلك لا يضره ضررًا راجحًا انصرفت عنه نفسه بالطبع استجابة

---

(١) ورد هذا الحديث فى البخارى (كتاب الجنائز) باب إذا أسلم الصبى فمات ١٦٨/٢. باب ما قيل فى أطفال المشركين ١٢٥/٢ ؛ ومسلم (كتاب القدر) ؛ والترمذى (كتاب القدر) ، وابن حنبل ٢٣٣/٢.

(٢) أورده مسلم فى (كتاب الجنة) باب رقم ٦٣ ، ابن حنبل ١٥٣/٤.

للفطرة ، لأن الله طبعه على حب النافع فلا يفعل الإنسان ما يجزم بأنه ضرر راجح. وإذا فعله كان ذلك لفساد فطرته وجهله.

ولهذا فإن البلاء العظيم يكون من الشيطان وليس من مجرد النفس، فإنه يزين لها فعل السيئة وارتكاب الشر ويحدثها بما فى ذلك من المحاسن التى يزينها للإنسان ؛ كما فعل إبليس بآدم وحواء. فقال: ﴿ **قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا** ﴾ [طه:١٢٠-١٢١] ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَـٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾** ﴾ [الزخرف:٣٦].

[٢] الأخلاق: عقيدة ودين

من أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية ارتباطها الوثيق بالدين فى أوامره ونواهيه، فما أمر الشرع إلا بما هو أخلاقى وما نهى إلا عما هو قبيح، ومن هذه العلاقة تستمد سلطة الإلزام الخلقى قوتها من سلطة الدين وقوة تأثيره فى القلب الذى يمتلئ بنور الإيمان، فينعكس ذلك على سلوك الأفراد التزامًا بالقيم الخلقية وتنفيذ للأوامر الدينية، وليس غريبا أن نقرأ فى كتب المعاجم اللغوية أن من بين معانى لفظ الأخلاق "الدين" وفى ضوء هذا المعنى نجد كثيرًا من علماء التفسير يتأولون قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾** ﴾ [القلم:٤] بمعنى إنك على دين عظيم، كما روى ذلك عن ابن عباس.

ومما يؤكد هذا الارتباط والتكامل ما جاء فى الحديث الشريف من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] ، فلفظ الحديث

(١) انظر مجمع الزوائد للهتيمى : ٨ / ٩ ؛ لطائف المعارف ، ص ٣٠٥.

جاء فى عبارة تفيد معنى الحصر أو القصر، بمعنى حصر وظيفة الرسول وبعثته فى أنه جاء لكى يتمم مكارم الأخلاق.

وهذا الحديث الشريف يرشدنا إلى أمرين مهمين جدًا:

الأول: أن الإنسان جاء إلى هذه الحياة وهو مزود بالفطرة القابلة والمستعدة لتقبل كل خلق حسن وخير، وترفض كل خلق ردئ ومسيء، وأن هذه الفطرة هى الركيزة الأساسية التى تجعل الإنسان يستعد لأن ينهض متساميا بنفسه عن كل خلق رديء ربما يكون قد اكتسبه من البيئة التى يعيش فيها، إلى الخلق الحسن السني، ويظل هكذا فى حالة ترق وسمو إلى ما هو أفضل دائما طلبا للكمال والتزود بالأخلاق الفاضلة، ولعل من هنا نجد الإنسان الذى يرتكب جريمة أو يخدش وجه الفضيلة غير راض عن نفسه دائما، وهو فى حالة عدم استقرار نفسى وإن شئت فقل فى حالة خصام مع نفسه؛ لأنه حين يرتكب فعلا غير أخلاقى فإنه يتناقض بفعله هذا مع فطرته السليمة التى جبلت على محبة الخير وكراهية الشر.

ولعلك تلاحظ ذلك بينك وبين نفسك، فأنت حين تكذب مثلا فإن اللسان يرتكب الكذب وقد يتكرر ذلك منه مرات ومرات فى الوقت الذى يكون القلب غير راض عن ذلك الفعل وموقن تماما أنك تكذب لو أضفت إلى كذبك جرما أخر فأقسمت بالإيمان المغلطة أنك صادق. فالقلب يكون فى واد واللسان فى واد أخر؛ لأن القلب يتعامل بلغة الفطرة السليمة بينما يتعامل اللسان بلغة الجوارح التى قد يخدعها الواقع وشهوات النفس فترتكب ما لا يرضى عنه القلب ويناقض منطق الفطرة، خاصة إن كان يحقق لصاحبة منفعة عاجلة، وهذا الإحساس بالتناقض الداخلى يحسه

كل فرد بينه وبين نفسه حين يرتكب فعلا غير أخلاقى.

الأمر الثانى: إن هذا الحديث يرشدنا إلى أن الأوامر والنواهى الدينية بمستوياتها المتعددة تحمل فى مضمونها المعنى الأخلاقى الذى يتصل مباشرة بإصلاح الفرد والمجتمع على سواء، وإن الشرع قد ألبس هذا المعنى الأخلاقى حكما شرعيا ليستمد منه قوة الإلزام به للمسلم وربطه بالعقيدة الإسلامية ربطا محكما، ليعلم المسلم من ذلك أن إهمال الفعل الأخلاقى هو فى صميمه إهمال للأمر الدينى وتفريط فيه ومن هنا جاءت الأوامر الأخلاقية التى أجمعت عليها الأديان السماوية ونادت بها المذاهب الأخلاقية الكبرى فى صيغة الأوامر الإلهية لتكتسب قوتها فى الإلزام من قوة إيمان صاحبها وامتلاء قلبه بحب الله وطاعته. قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩١].

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء: ٥٨] ويأمرنا بالعدل مع الأعداء كما أمرنا به مع الأصدقاء قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:١١٩].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ﴾ [الهمزة: ١].

﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [المطففين:١-٣].

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦].

فكل هذه أوامر أخلاقية جاءت فى صيغ دينية لتكتسب قوة الالتزام بها من ربطها بالعقيدة الإسلامية وبكمال الإيمان، وبأركان الإسلام من صلاة وصيام وزكاة، فيزداد الإيمان بكمال الالتزام بالأوامر الأخلاقية إذا اقترن بها نية القربى إلى الله وينقص بنقصان ذلك، فتجد القرآن الكريم يأمر المسلم بالصلاة أو الصيام أو العبادة المطلقة، ثم يردفها بمفردات الأوامر الأخلاقية ليربط المسلم أهمية الأخلاق بأهمية الدين فى نفسه؛ وبأهمية أركان الإسلام التى جاء الأمر الأخلاقى مقترنا بها. قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ

أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المدثر: ٤٢- ٤٥].

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ [الماعون: ١-٣].

ونجد في السنة النبوية كثيرًا من الأحاديث التي تربط الأوامر الأخلاقية بالعقيدة، لتدل على كمال الإيمان قال صلى الله عليه وسلم:

«عدلت شهادة الزور الشرك بالله» (١) .

«المؤمن لا يكذب» (٢) .

«من غشنا فليس منا» (٣) .

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٤) .

«إن من كمال الإيمان حسن الخلق»(٥).

«والله لا يؤمن (قالها ثلاث) قيل من هو يا رسول الله؟ قال: من بات

(١) الترغيب اولترهيب للمنذرى ١٦٦/٢ وانظر اللؤلؤ والمرجان حديث رقم (٥٤ ، ٥٥) .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ٢٨/٤ .

(٣) الترغيب والترهيب ٢٢/٣ ، ورواه مسلم.

(٤) متفق عليه انظر اللؤلؤ والمرجان ١٠/١ حديث رقم (٢٨).

(٥) مسند البزار ٣٥٩/١٥.

شبعانا وجاره جائع وهو يعلم»(١) ، فانظر كيف ربط الحديث الشريف بين كمال الإيمان والفعل الأخلاقي.

وعليك أن تقرأ وصايا لقمان لابنه وهو يعظه لتعلم كيف قرن القرآن الكريم أهمية الأوامر الأخلاقية وكيف ربطها بالاعتقاد وأصوله قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان: ١٢-١٨] ثم زادها تفصيلا ووضوحا فى ربط الأخلاق بالعبادة لتكتسب أهميتها وضرورة الالتزام بها فى أول سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ١-٩].

---

(١) الترغيب والترهيب ٢٢/٣ .

[٣] **الشخصية الأخلاقية فى القرآن:**

ولقد جسد القرآن الكريم الشخصية الأخلاقية فى كثير من وصاياه وآياته ولك أن تقرأ صفات عباد الرحمن التى ذكرها فى سورة الفرقان لنعلم منها كيف كانت هذه الشمائل الأخلاقية سببا فى اكتساب هذه الصفة الدينية العظيمة (عباد الرحمن) قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣- ٧٢].

واقرأ كذلك كيف قرن القرآن الأوامر الأخلاقية بالإيمان وربطها بالعقيدة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا

مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠–٣٤].

واقرأ كيف قرن القرآن الكريم النهى عن سوء الخلق والأفعال المنكرة بالنهى عن الشرك بالله. قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

وهذا قد تكرر فى القرآن الكريم كثيرا حيث تجد الأوامر الأخلاقية تلبس فى القرآن الكريم ثوب الأوامر الدينية لنتبين من ذلك قداسة الأخلاق فى الإسلام وأنها المنبع الوحيد لصلاح أحوال الأمة أفرادا وجماعات وإن رسل الله جميعا حملوا عبء هذه الأمانة ليبلغوها للناس فى صيغة الأمر

الإلهى فقرنوها بالجزاء الأخروى عند الله ثوابا أو عقابا وجعل مسئولية التطبيق لهذه المبادئ معلقة برقاب المسلمين – كل على حسب طاعته – وإن إهمالها أو ضياعها من المجتمع هو المقدمة الضرورية لانهيار المجتمع كله.

ولا نريد أن نستطرد فى ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التى جعلت من الالتزام الأخلاقى معلما أساسيا من معالم الالتزام الدينى على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة والأمة، ولكن الذى أود الإشارة إليه هنا أن الأمم كالأفراد فى ضرورة التزامها بالقيم الأخلاقية وهو معلم أساسى من معالم التزامها بالدين، فتتسع دائرة مسئولية الأخلاق فى الإسلام لتشمل فى عمومها كل مستويات البناء الاجتماعى للأمة، الفرد، الأسرة، الدولة، مؤسسات الدولة ليعمل الجميع تحت مظلة الأوامر الأخلاقية التى هى فى صميمها أوامر دينية، ولذلك نجد فى القرآن الكريم أوامر دينية تخص الأسرة وتنظم العلاقة الأسرية على نحو تربوي، يغرس فى نفوس الأبناء كيف يتعاملون مع الوالدين وتضع الأبوين فى مواجهة مباشرة مع مسئوليتهما عن غرس المبادئ الأخلاقية فى نفوس الأبناء عن طريق القدوة فى السلوك وإرشادهم إلى الالتزام بالأوامر الدينية والصبر على ذلك، والتعود على تحمل مشقة هذا اللون من التربية حتى يتعود الأبناء على السلوك الأخلاقى ويصير لهم عادة وطبعا ملازما لهم.

بل أن القرآن الكريم يعلمنا كيف نربى الأولاد على التعامل مع الوالدين فى حياتهم الخاصة، وكيف يحترمون خصوصية الحياة بين الوالدين، فلا يدخلون عليهم فى مجالسهم الخاصة بدون استئذان، ولا يقتحمون عليهم غرفات النوم بدون إذن ليتعود الطفل منذ الصغر على احترام

الخصوصيات لكل شخص حتى الوالدين، إن الرقى بمستوى التربية الأخلاقية فى داخل الأسرة قد جعله القرآن الكريم مهمة أبوية تتعلق مسئوليتهما بالوالدين يسألان عن إهمالها أو التفريط فيها أمام الله يوم القيامة.

وقد أرشدنا القرآن إلى ذلك فى سورة النور، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور:٥٨-٦٠].

ثم يرشد القرآن إلى نوع من الخلق الرفيع الذى يزرع الحب والمودة بين الأهل والأقارب والأصدقاء يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور: ٦١] كما أكد نفس المعنى ما جاء فى الحديث الشريف: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم. أفشوا السلام بينكم» (١).

(١) انظر الترغيب والترهيب ٢٦٦/٣، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه.

كما لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى فن التربية السليمة التى تبدأ بوضع الضوابط الأخلاقية وغرسها فى النفوس منذ الصغر ليتعود النشء عليها خاصة ما يتصل منها بغرائز الجسد والشهوات وأهواء النفوس التى يصعب معالجتها إذا هى استحكمت فى توجيه السلوك نحو إشباع الغرائز والخضوع لهوى النفس، لذلك تجد القرآن ينبهنا إلى الأخذ بأسلوب الوقاية أو العلاج الوقائي، وهو خير وسيلة للتربية منذ الصغر. فلكى يتعود المرء على خلق العفة مثلا تجد الآيات الكريمة تحذر من الوقوع فى المقدمات التى تؤذى إلى الرذيلة أو الاقتراب منها فتأمر الآيات بغض البصر الذى هو بريد الزني، قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾** ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

إن هذا اللون من العلاج الوقائى يساعد على بناء المجتمع على الفضيلة خاصة إذا اهتمت الأسرة بزرع هذه الفضائل فى نفوس الأبناء منذ الصغر

حتى إذا شب الأطفال عن الطوق لا يجدون مشقة ولا عناء فى الالتزام بهذه الفضائل.

[٤] أخلاق الدولة:

وكما نبه القرآن الفرد المسلم إلى ضرورة الالتزام بالأوامر الأخلاقية نبه كذلك الأمم والشعوب إلى أهمية الالتزام بالقيم الأخلاقية، وجعل ذلك الالتزام عنوانا لتحضرها وتماسك بنائها الاجتماعي، وإن غياب القيم الأخلاقية أو تغييبها تحت أى مسمى هو نذير فناء الأمم ومقدمة اندثار حضارتها كما قال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال آخر:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتما وعويلا

ومن هنا جاءت تحذيرات القرآن الكريم من سوء العاقبة للأمم التى فرطت فى عبادتها الأخلاقية، فانتشر فيها الظلم وغاب العدل، وغابت عنها المساواة وحلت المحسوبية، ووسد فيها الأمر إلى غير أهله، وضاعت الحقوق وضيعت الأمانات وأكلت أموال الناس بالباطل، كل ذلك أو بعضه كفيل بضياع الأمة وزوال الملك قال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ** ﴾ [الكهف: ٥٩]. ﴿ **فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ** ﴾ [الحج: ٤٥]. ﴿ **أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤** ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ﴿ **وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥** ﴾ [إبراهيم: ١٥]. ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً**

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

إن هذا الربط الواضح بين ضياع الأوامر الأخلاقية وهلاك الأمم يثير الانتباه إلى أهمية هذا القانون الكونى الذى أشارت إليه آيات القرآن، وجعلته جزءًا من العقيدة الإسلامية، وهذا يدعونا إلى التساؤل حول أحكام الشرع الإسلامى ومستوياتها وما تشمل عليه من معان أخلاقية أساسية فى بناء المجتمع وما تعبر عنه من أصول وقواعد، ينبغى الأخذ بها فى مناهج التربية فى مؤسساتنا التعليمية، كما يدعونا إلى التساؤل أيضا لماذا لم يهتم دارسوا الفقه الإسلامى وأصوله ببيان المعانى الأخلاقية فى مسائل الفروع الفقهية مسألة مسألة وبيان أثرها فى تماسك البناء الاجتماعى والحفاظ عليه؟، إن مقاصد الشريعة الإسلامية تدور فى فلك "تحقيق المصالح ودرء المفاسد" وهذه هى مهمة علم الأخلاق الذى يغلب فيه جانب العمل على النظر، لقد نبهت فى السبعينات من القرن العشرين إلى أهمية الربط بين علم الفقه والأصول من جانب وعلم الخلاق فى الإسلام من جانب أخر وأن مهمة العلمين واحدة إذ هى تتركز فى بيان ما يجوز وما لا يجوز، الحلال والحرام، ما هو أخلاقى وما هو غير أخلاقى انطلاقا من الترابط الضرورى بين الدين والأخلاق وهذا يحتاج إلى اهتمام المتخصصين فى الفقه إلى إبراز هذه المعانى النبيلة فى دراسة الفقه بدلا من دراسة مسائلة بشكلها التقليدى الجاف.

٥- خصائص الأخلاق الإسلامية

الجمع بين المادة والروح:

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين أخلاقيات الأمم والشعوب ومنطلقاتها الحضارية، حيث تتجسد هويات كل أمة فى عقائدها أولًا، ثم فى مجموعة القيم الأخلاقية للأمم كما تظهر فى خصائص حضارتها التى تميزها عن حضارة غيرها من الأمم الأخرى، فالحضارة الغربية مثلا يغلب عليها الطابع المادى الذى يتمثل فى إشباع حاجة الجسد وتحقيق رغباته، بينما تختفى منها – أو تكاد – مظاهر الاهتمام بالجانب الروحى والعمل على إشباع حاجاته الفطرية، مما ترتب على ذلك انفصام فى شخصية الفرد، حيث تتحقق للجسم المادى كل رغباته الحسية وأهمل الجانب الروحى تماما وأصبح المرء هناك فى حالة فقر روحى وأشبه بالجائع الذى يحتاج إلى ما يسد رمقه أو الظمآن الذى يبحث عن ماء يروى به غلته. فانتشرت بينهم ظواهر الانتحار والإحساس بافتقاد معنى الحياة، وضياع قيمة الوجود وغايته واختزلوا الوجود الإنسانى كله فى الجانب المادى فقط، فلا حياة بعد الموت، وليس هناك غاية وجودية نسعى إليها.

والحضارة الإسلامية جاءت على النقيض من ذلك تماما، حيث اهتمت بالجانب الروحى والمادى معا، فلم تجعل لأحد الجانبين غلبة على الآخر، فعرفت للجسم حقوقه وحافظت عليها ولم تهمل الجانب الروحى بل اعترفت به وبأثره فى توجيه السلوك الإنسانى نحو غاية أخلاقية مطلوبة

تتوازن فيها حاجات الجسم والروح معا، ومن هنا كانت الأخلاق الإسلامية صورة حية تجسد الطبيعة الإنسانية فى أبعادها المختلفة ما علمناه منها وما لم نعلمه، فتتميز بالواقعية المستمدة من طبيعة الإنسان نفسه التى تجمع بين المادة والروح والتى جمع بينهما القرآن الكريم فى صورة تلازمية لا تقبل انفكاك أحد الجانبين عن الأخر، فالقرآن الكريم قد أشار إلى الجانب المادى وأكده كحقيقة واقعية لها أثرها فى بناء الإنسان، قال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧** ﴾ [نوح: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿ **۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥** ﴾ [طه: ٥٥] ﴿ **وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢** ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ولا شك أن هذا الجانب المادى له آثاره ومتطلباته فى السلوك الإنسانى التى لا يجوز إغفالها.

وفى نفس الوقت نجد القرآن الكريم قد أشار إلى الجانب الروحى الذى يحتاج من الإنسان إلى مراعاته وإشباع حاجاته لأن أثر الجانب الروحى فى سلوك الإنسان قد يكون أقوى وأشد أثرا من الجانب المادي، وقد لا يشعر به الإنسان حينا، ولكنه لا يفقد أثره فى السلوك وفى خلق التوازن الروحى والنفسى للإنسان.

قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ ﴾ [سورة ص: ٧١-٧٢] فقد بنيت الآية الكريمة أن الإنسان خلق على نحو خاص يجمع بين المادة الطينية

والنفخة الإلهية التى صار بها إنسانا مكرما استحق أن تؤمر الملائكة بالسجود له. وهذه الخاصية الإنسانية المكرمة لم تكتمل إلا بالجمع بين هذين الجانبين فى شكل متوازن معتدل ليكون السلوك الإنسانى تجسيدًا حيًّا لإنسان متكامل الجوانب سوى الرغبات والمقاصد، وضرورة التوازن بين هذين الجانبين (المادى والروحي) والعمل على إيجاد التوازن بينهما فى سلوك الإنسان قد أضفى على الأخلاق الإسلامية خصائص ومميزات جعلتها تنفرد بها عن الدراسات الأخلاقية فى المذاهب الفلسفية المختلفة، ومن أهم الخصائص التى تميز هوية الأخلاق الإسلامية:

١- أنها تستمد قوة الالتزام بها من قوة الإيمان بالعقيدة الدينية التى جعلت المبادئ الأخلاقية جزءا أساسا من شعائر الدين وأوامره. والرسول ﷺ قد ربط بين السلوك الأخلاقى وكمال الإيمان ربطا محكما، فجعل صلى الله عليه وسلم التخلق والسير على مقتضى الأوامر الأخلاقية من كمال الإيمان، ولقد جاءت الأوامر الإلهية لتؤكد هذه المعانى وتجعل منها أمرا شرعيا يكلف به المؤمن ليثاب عليه فى الآخرة إذا فعله بنية القربى إلى الله تعالى ويعاقب على تركه وإهماله. ومن هنا نجد أن المبادئ الأخلاقية الكبرى (العدل – الوفاء – الصدق – الأمانة) وما تفرع عنها من مفردات أخلاقية قد أمر بها الإسلام على أنها تكليف شرعى ودليل على صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وأن أى خلل يتطرق إليها بالإهمال أو عدم الالتزام فإن ذلك الخلل ينسحب بالتالى على صحة الاعتقاد وكمال الإيمان، وإذا كانت هذه المبادئ تمثل قيما أخلاقية فى جميع المذاهب الفلسفية قديمها وحديثها فإنها كذلك محل اتفاق بين جميع الأديان السماوية على أنها أوامر إلهية

جاءت بها التوراة وبشر بها الإنجيل وصدقهما القرآن الكريم.

ونجد السنة النبوية المطهرة قد ربطت كذلك ربطا محكما بين مفـردات علم الأخلاق وكمال الإيمان بحيـث إذا انـتفى الالـتزام بالـسلوك الأخـلاقى ينتفى تبعا لذلك كمال الإيمان مما يجعل المؤمن مطالبا شرعا ودينا بتنفيـذ كل ما أرشدت إليه مبادئ الأخلاق من منطلق إيمانى عقيدى ديني، فضلا عـن كونه أمرا أخلاقيا وهى شعب الإيمان التى أشارت إليها الأحاديث الكثيرة.

ولا شك أن السلوك الأخلاقى الذى يستمد قوة الالتزام به من قوة الإيمان بالعقيدة نفسها يكون سلطانه على الجوارح أقوى وعلى القلب أشد حيث تتحرك الجوارح تبعا لقوة امتلاء القلب بمعانى الإيمان، والإحساس بخشية الله الذى أمر ونهى فتنصاع الجوارح تنفيذا لأوامر الله ونواهيه وتتحد الأوامر الإلهية مع المبادئ الأخلاقية فى الفعل الإنسانى ليجمع الإنسان فى سلوكه بين نور الإيمان وكمال الأخلاق تجسيدا لقوله صلى الله عليه وسلم: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وتتوحد غاية الأخلاق فى الإسلام مع مقاصد الشرع وغاياته التى تدور كلها حول تحقيق المصالح ودرء المفاسد للفرد وللجماعة على سواء وقد تكفل بذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى نصت عليه آيات القرآن الكريم وما صح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتبلغ أهمية هذا المبدأ فى بناء المجتمع درجة قصوى حيث يحتل درجة الفرض الكفائى بين مراتب الأحكام الشرعية بحيث إذا قام به بعض أفراد المجتمع يسقط الإثم عن الباقين وإذا فرطت الأمة فى القيام به وأهملته فقد يأثم الجميع وتجنى الأمة ثمرة ذلك الإهمال متمثلا فى ضياع القيم الأخلاقية وشيوع الرذيلة، وتفشى اللامبالاة

والسلبية التى هى من أخطر أمراض المجتمع البشرى. قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم بعذابكم فتدعون فلا يستجاب لكم»(١).

٢- إن هذه الأخلاق تعتمد فى سلطتها على الرقابة الداخلية الذاتية للفرد فليست هناك رقابة من خارج الفرد على سلوكه الشخصى وإنما هو رقيب بنفسه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] فهو إذا التزم سلوكا أخلاقيا معينا فينبغى أن يكون ذلك لقناعته الداخلية بأن هذا السلوك هو ما ينبغى فعله إيمانا بصحة المبدأ فى ذاته وليس خوفا من سلطة خارجية تتمثل فى رقابة الشرطة مثلا، أو خوفا من لوم المجتمع له أو طلبا لمنفعة أو تحقيقا لمصلحة. حتى يكون الفعل محققا للمعنى الأخلاقى والدينى معا كما قال صلى اله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (٢) . وتحرير الفعل الأخلاقى من هذه الشوائب التى قد تعلق به تجعله خالصا لوجه الله تعالى فيثاب صاحبه عليه فى الآخرة

(١) ورد الحديث فى الترمذى، كتاب الحدود؛ وانظر الترغيب والترهيب ١٦٩/٢.

(٢) متفق عليه، انظر اللؤلؤ والمرجان ٤١٦/١ حديث رقم (١٢٤٥)، ورواه البخارى فى كتاب الإيمان.

ويمدح به فى الدنيا، فالرقابة القلبية هى الحارس الأمين على سلوك الفرد فإذا كانت سلطة الضمير حية متيقظة فلا يحتاج معها الفرد إلى رقيب من الخارج ولو ساد هذا المبدأ وسيطر على سلوك أفراد المجتمع كله لصار المجتمع آمنا فى نفسه آمنا على نفسه ولما عانت المجتمعات الإنسانية من ويلات السلوك الإجرامى الذى يدل على غيبة الضمير وتدنى الأخلاق.

٣- إنها أخلاق معيارية تهتم بالبحث فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك الإنسان عكس الأخلاق الوضيعة التى تهتم بالبحث فيما هو واقع فى المجتمع من السلوك الإنساني، غايتها الارتقاء والنهوض بالسلوك الإنسانى فهى دائما تحث الإنسان على التحلى بما هو أفضل من القيم والمبادئ وتجعل من الإنسان كائنا مسئولا عن النهوض بنفسه وبمجتمعه سواء كان الفرد حاكما أو محكوما. فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (١). وتتوزع هذه المسئولية لتشمل جوانب الحياة المختلفة، لتجعل من الإنسان حارسا أمينا على مصالح أمته يرعاها ويصونها من منطلق مسئوليته عما استرعاه عليه المجتمع، ولذلك كانت المسئولية الأخلاقية شاملة وعامة لكل أفراد المجتمع – كل بحسب مكانته أو بحسب طاقته – فهناك ما يسمى بأخلاقيات الطبيب، وأخلاقيات المعلم، وأخلاقيات القائد ... إلخ وأخلاقيات المهنة. وقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه المعانى كلها فى كلمة جامعة حين قال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(٢) ، فإن إتقان العمل فى كل

(١) انظر الحديث رقم (١١٩٩) اللؤلؤ والمرجان، متفق عليه.

(٢) سنن البيهقى : ١٨٦٧/٤ ، صحيح الجامع للألبانى ، ص ١٨٨٥.

المجالات هو الطريق إلى نهضة الأمم وتقدمها ولاشك أن ذلك كلـه مطلـب شرعى وأمر أخلاقى.

أما الأخلاق الوضعية فهى تهتم فقـط بالبحـث فى العـادات والتقاليـد الوضعية التى يكون عليهـا الـسلوك الإنـسانى فى الواقـع لنـستخرج منهـا قواعدها وضوابطها السلوكية فهى تهتم بمـا هـو كائـن فعـلا أمـا الأخـلاق الإسلامية فهى دائما تهتم بما ينبغى أن يكـون عليـه الـسلوك، والأخـلاق الإسلامية تستمد مثاليتها المعيارية من كونها إلهية المصدر غايتهـا الارتقـاء بالفرد والمجتمـع، غايتهـا الـسمو الأخـلاقى الذى يـرقى بـالفرد إلى مـصاف الملائكة أو أكثر يقدم فيها مبدأ الإيثار على مبدأ الأثـرة ومـصلحة الأمـة مقدمة على مصلحة الفرد والصالح العام مقدم على الصالح الخـاص، لتـصل فى النهايـة إلى مجتمـع مثـالى تحكمـه القـيم الأخلاقيـة ولـيس المـصلحة الشخصية يعيش فيه الضعيف والفقير بجانـب القـوى والغـنى فـلا يطـغى صاحب جاه أو سلطان على فقير أو ضعيف وعندئذ تتلاحم القلوب وتتوحد المقاصد والغايات ويسود الأمن والأمان فى ربوع المجتمع كله.

٤- أنها تجمع بين النسبية والإطلاق فإن المبادئ الأخلاقية الـتى تـسعى إلى تحقيقها فى الواقع هى مبادئ عامـة، مطلقـة، كليـة – العـدل – الـصدق – الوفاء – الأمانة. هذه كلها مبادئ مطلقة تتطلبها المجتمعات الإنسانية لتـسود فيها حياة مستقرة هادئة تحقق خير الإنـسان والجماعـة. وهى مبـادئ عقليـة مثالية معيارية فرضها العقل كقواعد عامـة للـسلوك الأخـلاقى ونزلـت بهـا الأديان السماوية كلها. فصارت أشبه بدستور للـسلوك البـشرى على مـستوى الفرد والجماعة. ومن هنا فهى مبادئ أخلاقية لها صفة الإطلاق والعموم.

أما على مستوى التطبيق العملى فى واقع الحياة البشرية فإنها تستمد نسبيتها من الظروف المحيطة بالفرد، ومن إمكانات الفرد وطاقاته التى يتمتع بها ومن هنا تتفاوت مواقف الأفراد والجماعات عند تطبيق المبدأ حيث يكون نصيب الفرد منه حسب استطاعته وإمكاناته، كما قال تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦] (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) [الطلاق: ٧] وقال سبحانه وتعالى: (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)[النور: ٦١]، وهذا التفاوت النسبى بين الأفراد يمليه الواقع وضرورته وليس هوى الشخص ورغباته، فلا يصح ولا يقبل من الفرد أن يتعلل بعدم الاستطاعة وفقدان الطاقة على الفعل الأخلاقى فى الوقت الذى يملك فيه الطاقة والقدرة لأن ذلك يطعن فى أمانته على نفسه ويمثل خلالا فى رقابته الداخلية على ذاته وسلوكه وينبغى أن يعلم أن رقابته الذاتية تستمد قوتها وفاعليتها من إيمانه برقابة الله تعالى عليه وإيمانه بأن الله يعلم السر وأخفى فإن أى خلل يتسلل إلى رقابته الذاتية فإنه يخدش إيمانه برقابة الله عليه وقد حذرنا القرآن الكريم من الغفلة أو التغافل عن هذه الرقابة وأهميتها فى تحقيق المعنى الأخلاقى والدينى فى سلوك الرفد وجعل مرتبة الإحسان تجسيدا حيا لمعنى هذه الرقابة الذاتية. قال صلى الله عليه وسلم فى حديث جبريل الذى نزل ليسأل الرسول «ما الإيمان .. ما الإسلام.. ما الإحسان .. فقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) .

(١) حديث جبريل : متفق عليه ؛ اللؤلؤ والمرجان ٩/١ حديث رقم (٥).

٥- إنها تتصف بالواقعية لأنها تراعى الطبيعة البشرية وما يحيط بها من ظروف وملابسات قد يضطر المرء فيها إلى فعل ما هو غير أخلاقى تحت ضغط الظروف والضرورة وهذه الغاية تنفرد بها الأخلاق الإسلامية عن بقية المذاهب الفلسفية الأخرى، ولذلك كانت القاعدة الفقهية المعروفة (إن الضرورات تبيح المحظورات)، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وفى الحديث: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»(١) وكانت التكاليف الشرعية منوطة بالاستطاعة والقدرة إن هذه الخاصية ترفع عن الإنسان إحساسه بالحرج النفسى إذا اضطر إلى فعل محظور أو ترك واجب تحت ضغط الظروف أو إذا أكره على ذلك وقد تتسع دائرة هذه القاعدة لتشمل فعل الجوارح كلها حتى نطق اللسان بكلمة الكفر، كما حدث فى عصر الرسالة الأولى، فقد أجبر المشركون عمار بن ياسر أن ينطق بكلمة الكفر وهو تحت سياط التعذيب والضرب فقالها مضطرا ومكرها عليها وحزن حزنًا شديدا وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك فنزل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

لكن اضطرار المرء إلى فعل المحظور بجوارحه ينبغى أن يكون مقرونا بكراهية القلب ونفوره من الفعل لأنه لا سلطان لأحد على القلوب إلا الله وثبات القلب على كراهية المحظور شرعا ونفوره منه دليل على امتلاء القلب بمعانى الإيمان والخوف من الله حتى وإن ارتكبت الجوارح الفعل المحظور اضطرارًا.

---

(١) ورد فى البخارى ٩٤/٩، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، مسلم ٩٧٥/٢ كتاب الحجج .

[٦] الأخلاق والطبيعة الإنسانية

وفى الإسلام نجد أن نظرته إلى الطبيعة الإنسانية وخصائصها كانت أكثر شمولا واتساعا من الاتجاهات الفلسفية لأنها جمعت فى نظرتها إلى الإنسان كل الجوانب المادية والروحية وأضافت إليها ضرورة التسامى بهذه الجوانب والتنسيق بينها باعتبار أن الإنسان كل لا يتجزأ فلا ينبغى أن ينظر إليه على أنه تركيب عضوى أو مزيج من مجموعة العناصر الطبيعية فقط كما أنه من الخطأ أن ينظر إلى الإنسان على أنه عقل مجرد من المادة لا صلة له بها، أو أنه روح سماوية تخلصت من شوائب الطبيعة بل راعت فى الإنسان أنه كل متكامل من هذه العناصر جميعها ولابد لكى يستقيم سلوك الإنسان من ضرورة التنسيق بين كل هذه الجوانب حتى يؤدى كل جانب منها وظيفته فى حراسة قانون أخلاقى يهدف الإنسان إلى تحقيقه.

ولقد أكد القرآن على الجانب المادى فى الإنسان ونبه على ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا** ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح: ١٧] وقوله: ﴿ **إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ** ﴾ [الإنسان: ٢]، وقد راعى القرآن أن هذا الجانب المادى فى الإنسان يعتبر أساسًا من أسس تكوينه العضوية ولابد له من إشباع هذا الجانب فوضع لذلك نظاما محكمًا تكفل به علم الفقه وكتب الفروع من معاملات وعبادات وجعل لكل غريزة من الغرائز المادية نظاما أخلاقيا ينبغى سلوكه فى إشباعها وجعل إشباع هذه الجوانب عند توفر القصد والنية عبادة يتقرب بها إلى الله وقد جاء فى الحديث «أن فى نطفة أحدكم صدقة» ولما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم: «هل يكون فى

نطفة أحدنا صدقة يا رسول الله؟ قال: نعم أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه بها وزر، فكذلك لو وضعها فى حلال فإن له بها أجرًا»ا.

وبالإضافة إلى هذا الجانب المادى فهناك جانب آخر روحى يتمثل فى النفس والعقل والروح ولهذا الجانب خصائص معينة وله مقتضيات لابد مراعاتها فى السلوك. وفى الإسلام لا يوجد انفصام بين هذين الجانبين وإنما بينهما صلة قوية وضحها الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله: «أن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب». فالارتباط بين الجانبين المادى والروحى ضرورى فى نظر الإسلام لأن أحدهما محكوم بالآخر وخاضع له إذ لابد أن يتحقق سيطرة الجانب الروحى السماوى على الجانب المادى الأرضى ليستقيم سلوك الإنسان، ومحاولة النظر إلى أى جانب من هذه الجوانب مستقلا عن الآخر محاولة خاطئة محكوم عليها بالفشل مسبقًا؛ لأن الإنسان يجمع فى تكوينه بين خصائص مادية وأخرى سماوية ونتج عن المزج بين هذه الخصائص جميعها صفات أخرى ثالثة نشأت من تجمع هذين العنصرين (المادى والروحى) فى الإنسان وهذه الصفات الأخيرة لها أثرها فى مزاج الإنسان وسلوكه ومن الخطأ أن ينظر إلى الإنسان على أنه مجموعة من العناصر المركبة فقط بل علينا فى تفسير سلوكه أن تنظر إليه على أنه شخصية ينبغى أن تتكامل فيها الجوانب المادية والروحية وإن كل جانب منهما ينبغى أن يقوم بمهمته ووظيفته فى حياة الإنسان بانتظام وتنسيق مع بقية الجوانب الأخرى ومن ثم فإن الإنسان لابد أن يتميز بخصائص معينة لا نجدها لدى غيره من الكائنات الأخرى. ولعل هنا موطن الابتلاء الذى تحدث عنه القرآن الكريم بقوله

تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢].

[٧] تهذيب الغرائز[١]:

ولقد كان الإسلام أكثر الأديان السماوية حفاظا على إيجاد التوازن والتنسيق بين كل ميول الإنسان ورغباته وغرائزه ووضع النظم والمبادئ التى يستطيع بها الإنسان تهذيب غرائزه وتنمية ملكاته وميوله وتنمية الجوانب الخيرة فى طبيعته وترويض الشرير منها. ومن هنا كان الإسلام حريصا على تعدد مصادر الإلزام الخلقى وتنوعها بحسب تنوع الطبائع البشرية واختلاف خصائص هذه الطبائع من شخص لآخر بالإضافة إلى حرصه على إشباع غرائزه وميوله بوسائل مشروعة تحفظ على الإنسان آدميته وتصون عليه حياته فى إطار سليم، وهناك كثير من النصوص التى تولت كيفية تهذيب النفس وترويضها ببيان الوسائل المشروعة لإشباع الغرائز وتنظيمها مثل كبح جماح النفس وترويضها على الحلم والعفو. قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وجاء رجل إلى النبى ﷺ وقال له: أوصنى يا رسول الله. قال: «لا تغضب». قال أوصنى. قال: «لا تغضب». وكررها الرجل ثلاثة: قال له الرسول: «لا تغضب»[٢]. وفى الحديث: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه

(١) انظر: ما كتبه المرحوم الدكتور/ محمد عبد الله دراز عن هذه القضية فى كتابه العظيم «دستور الأخلاق فى القرآن الكريم».

(٢) مسند الإمام أحمد ٦٨/١٦.

عند الغضب»[1] .

وغريزة التملك وحب المال قد هذبها القرآن وطوعها بالوعد والوعيد والترغيب والترهيب (ومن يوق شح) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] وتوعد من لا يستطيع مقاومة هذه الغريزة بقوله: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة: ٣٤] وكتب الأحاديث النبوية مليئة بالنصوص التى ترغب فى الانفاق وتحذر من البخل ولو كان بشق نمرة.

ونزعة الاستعلاء والتكبر والخيلاء حاول القرآن إماتتها ببيان وصايا الأنبياء إلى أبنائهم بعدم التكبر والاستعلاء قال لقمان لابنه: ﴿ **وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ** ﴾ [لقمان: ١٨ – ١٩].

وكثيرا ما يردد القرآن هذا النداء على أسماع المسلمين (يا بنى آدم) تذكير لهم بأصلهم ومبدأ نشأتهم بأنهم من تراب فلا يحق لهم أن يتكبروا ويختالوا فى الأرض مرحًا.

ومثل غريزة شهوة البطن والفرج فمن حاول إشباعها عن طريق غير

---

(١) متفق عليه ، أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : ٧٠٧/٢ حديث رقم : ١٦٧٦ ، ٢٧٧/٣.

مشروع فقد توعده الله بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ومن لم يتيسر له إشباعها بالطريق المشروع فقد بين الإسلام وسائل تنظيمها وترويضها قال عليه السلام: «يا معشر المسلمين. من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنها أغض للبصر وأحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1] إلى غير ذلك من الطباع التى تولى القرآن تطويعها لمبادئ الأخلاق ومعايير السلوك القديم.

ولقد راعى الإسلام أن يقيم قانونه الأخلاقى على أساس قانون الحياة الإنسانية نفسها بدلا من أن يعارضها وجعل لكل مستوى من النماذج البشرية ما يناسبه من مصادر الإلزام الخلقى.

١-وتأتى فى الدرجة الأولى من مصادر الإلزام سلطة الضمير الخلقى الذى ينبع أساسا من وجدان الإنسان وفطرته كمصدر من مصادر التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، ومن ثم تطمئن نفسه إلى السلوك الأخلاقى وتأبى السلوك غير الأخلاقى، وبالتالى فإن ذلك يكون دافعًا إلى الالتزام بالأول والابتعاد عن الثانى، ولقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فى قوله: «البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر»[2].

٢- ثم يأتى العقل باعتباره مصدرا من مصادر الإلزام الخلقى فى الإسلام والقرآن جعل صفة العقل والتعقل من المعانى التى يحاسب

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود : انظر الترغيب والترهيب ٦٦/٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥٣٣/٢٩ حديث رقم ١٨٠٠٦.

المرء عليها إذا هو لم يخضع لسلطتها أو تمرد على أوامرها. وهذا ما أفاض فيه المعتزلة الحديث؛ ولكن الذى أود الإشارة إليه هنا أن وجدان الإنسان لضميره وإحساسه به وشعوره بأوامره سابق على وجدانه لعقله باعتبار أنهما مصدران من مصادر الإلزام الخلقى وأن كلا منهما خاص بنموذج معين من البشر.

٣- وهناك طراز من الناس ماتت ضمائرهم وكسدت عقولهم فلم ينتفعوا بوجدان العقل والضمير ولم ينفع معهم سلطانهما، وهنا نجد الإسلام يلجأ إلى أسلوب الترغيب والترهيب والتحذير والتنفير كمصدر من مصادر الإلزام بالسلوك الخلقى لأن الترغيب والترهيب من الوسائل التى تثير النفوس وتحرك الضمائر نحو المقصود، ويستعمل القرآن مع هذا النوع من البشر أسلوب التهديد أحيانا. قال سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

٤- وهناك نوع من البشر لا تحركهم إلا منافعهم الشخصية فيلجأ الإسلام معهم إلى أسلوب المنفعة باعتباره مصدرا ملزما يليق بهذا النوع من الناس باعتبار أنهم ألفوا اللذات وطبعوا على جلب النافع لها لهذا حرص الإسلام على التشويق فى السلوك الحسن من أجل المكافآت والجزاءات الطيبة وجعل ذلك مناسبا الطبيعة هؤلاء ملزما لهم بالسعى وراء ما ينفعهم ووضع لذلك الإطار الصحيح لجلب هذه المنفعة فقال سبحانه: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] إلى غير ذلك من النصوص التى تستميل القلوب إلى العمل الصالح بقصد الحصول على المكافأة والجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة. ولاشك أن هذا أسلوب هام ونافع لكثير من الناس الذين لم يرقوا بأنفسهم إلى مستوى النماذج الأخرى.

٥- وفى مؤخرة القافلة الإنسانية يوجد نوع من البشر لا يرعوون بأى سلطان من العقل والضمير ولا ينفع معهم ترغيب ولا ترهيب فهم خطر على المجتمع كله لأنهم قد استهوتهم شهواتهم فلم يسمعوا قول الحق ولا استجابوا لنداء العقل وهذا النوع من الناس لا يرعوون إلا بسلطان القوة ولا يجدى معه غير عصا السلطان والجماعة وفى مثل هذا الموقف يجعل الإسلام الجماعة كلها مصدرا من مصادر الإلزام للفرد بالسلوك الأخلاقى والجماعة مسئولة عن حماية نفسها من شر هذا النوع ومسئولة أيضا عن تقويمه وإصلاحه لأن فساد الفرد خطوة أولى نحو فساد الجماعة وما لم تتدارك هذه الخطوة فسيتلوها خطوات أخرى فى هدم الكيان الاجتماعى كله فتنشأ الأمراض الاجتماعية وتنتشر الموبقات ويعم الفساد وهذا ما حرص الإسلام على حماية المجتمع منه.

هُويَّة الفلسفة الإسلامية

تمهيد:

تتباين فلسفات الأمم والشعوب فيما بينها فى الخصائص والسمات المعبرة عن حضارتها وعقيدتها حيث تنبثق منها وتعود إليها النظرة العامة والشاملة للكون والوجود والإنسان، فنجد مفكرى كل أمة مشغولين بتجسيد نظرتها وعقيدتها فى نسقها الفلسفى العام الذى تتناول خلاله التعبير عن مذهبها فى الوجود من أين وإلى أين ولماذا؟ وكذلك تجسد نظرتها للإنسان وقضاياه وعلاقته بالوجود والمبدأ والمصير وعلاقة النفس بالجسد، والحرية الإنسانية ... إلخ.

فالفلسفة المصرية القديمة قدمت لنا تصوراتها عن الإله والإنسان والمصير والخلود، وعبرت عن ذلك فى الآثار الفرعونية والنقوش والزخارف على جدران المعابد.

والفلسفة اليونانية قدمت لنا النسق الفلسفى لحضارتها فى محاورات سقراط وأفلاطون وإلهيات أرسطو.

وكذلك الفلسفة الهندية القديمة والصينية والفارسية نجد كل هذه الفلسفات عبرت عن مذهبها الفلسفى، وجسدت لنا نظرتها إلى الكون والإنسان والمبدأ والمصير والنفس والجسد بما يتناسب مع ثقافتها وعقيدتها وأصولها الحضارية التى تمثل المرجعية والمصدر لكل ما تصدر عنه من

تحليلات وأفكار وفقًا لاختلاف المرجعيات العقائدية لكل حضارة، وكان من الضرورى إذن أن تختلف النظرة وتختلف التحليلات الفلسفية لقضايا الوجود والإنسان من حضارة إلى حضارة ومن مذهب إلى مذهب.

فالتحليلات الفلسفية للإنسان ومصيره تختلف فى الفلسفة اليونانية عنها فى الفلسفات الشرقية عمومًا، والنفس والروح وعلاقتهما بالبدن تختلف النظرة إليهما تبعًا لذلك، وكذلك اختلفت النظرة الوجودية العامة للكون (المبدأ، والمصير، والوظيفة) فى كلتا الفلسفتين، وتبع ذلك بالضرورة اختلاف التحليلات التى تفسر من خلالها علاقة الكون بمصدره، وهل هو الخالق سبحانه كما فى الفلسفة الدينية، أو المحرك الأول كما فى فلسفة أرسطو، أو الأول كما فى محاورات أفلاطون، أو أن الكون موجود بذاته أزلًا وأبدًا ـ وكذلك اختلفت نظرة كل مذهب عن الآخر فى مفهوم السعادة، ومفهوم القيمة الخلقية، وهذا الاختلاف بين المذاهب فى داخل كل حضارة واقع وملموس، فضلًا عن الخلاف الحاصل بين الحضارات المتباينة.

والفلسفة الإسلامية ليست بدعا فى ذلك، فإن شأنها فى التعبير عن خصوصيتها الإسلامية شأن جميع الفلسفات الأخرى التى تتميز بها الحضارات فيما بينها، وهذا لا يلغى القدر المشترك بين الحضارات الإنسانية، فالإنسان هو الإنسان وقضاياه متشابهة إلى حد كبير، ويكمن الخلاف بين الفلسفات الحضارية فى التصور العام لحلول هذه المشكلات حسب مرجعية كل حضارة ومصدرها العقيدى.

[١] بنية الفلسفة الإسلامية:

مـن المفـترض – نظريًـا- أن الفلـسفة الإسـلامية تعبـير عـن النظـرة الإسلامية فى ثوبها العقلى إلى الإنسان والوجود بدءًا ونهاية، شأن كل فلسفات الأمم الأخرى التى تعبر بدورها عن ثقافة هـذه الأمـم ونظرتهـا العقليـة إلى الوجود من واقع عقيدتها الرئيسية، سواء كانت إنسانية أو شعوذة لا أصل لهـا؛ لا من وحى السماء ولا من منطق العقل.

وقد نتلمس عناصر التأثير فى فلسفات الأمم وحضارتها من مـستويات أساسية يكون لها الأثر الأكبر فى نشوء هذا النظـر الفلـسفى وتأسيـسه وفى مسيرته التاريخية وتطوره فى العوامل التالية:

١- **العامل الأول**: عقيدة الأمم، ولعل أهم هذه العوامل المؤسسة للنظـر الفلسفى هو عامل الاعتقاد الدينى الذى يتأسس عليه ويتأسـس بـه النظـرة الكلية العامة والشاملة للإنسان وقضاياه والوجود ومشكلاته والغاية القصوى للوجود كله. نجد ذلك واضحًا فى التصور اليونانى ونظرته لهذه القـضايا، كمـا نجد نظيره فى فلسفة الهند القديمة وفلسفة قدماء المصريين والصين وفـارس حيث جسدت كل أمة فلسفتها فى نسيجها الأسطورى لهـذه القـضايا العامـة وصاغتها بأسلوبها الخاص فى بردياتها أو نقوشها الخطية التى تعارفت عليهـا. ثم كانت فلسفة الأديان السماوية الثلاثـة: اليهوديـة الـتى نزعـت إلى المـادة وجسدت فيها كل أهدافها ومقاصدها الفكريـة النظريـة، وكانـت المـسيحية بنزوعها الروحى المتجسد فى فلـسفة الـروح والتجـسد اللاهـوتى فى الـسيد المسيح.

ثم تأتى الفلسفة الإسلامية فى مرحلة التأسيس والنشأة متأثرة فى الكثير من جوانبها بنظرة اليونان وفلسفتهم، فنقرأ تراث المؤسسين (الكندى والفارابى وابن سينا) وشراحهم فنجد المصطلح اليونانى والمشكلات اليونانية لابسة ثوبها العربى لغة ولسانًا، ومحاولة تقريبها من الفكر الإسلامى معنى ومنهجًا وصياغة، واستمرت المحاولة قرابة قرنين أو أكثر من الزمن.

ثم نجد الشراح والمفسرين يتخذون من موقف المؤسسين نموذجًا ومثالًا حاولت الأجيال المتتابعة السير على منواله جيلًا بعد جيل، وسواء نجحت محاولة المؤسسين للتقريب بين النظر اليونانى والنظرة الإسلامية أم أخفقت، فإن علم الكلام قد قام بدوره هو الآخر فى محاولة الرد على الفلاسفة وتقديم البديل الإسلامى الخالص للبرهنة على صحة العقائد الإسلامية عقلًا ونقلًا محاولة منهم لإظهار التصور الإسلامى لقضايا الفلسفة: مشكلات وحلول.

يلفت كل ذلك نظرنا إلى أهمية أثر العامل الدينى فى تأسيس النظر الفلسفى ودوره فى منهجية السؤال واستلهام الجواب فى ضوء مصادر الإسلام: الكتاب والسنة.

٢- **العامل التاريخى**: وترجع أهمية هذا العامل إلى العناصر البشرية التى اعتنقت الإسلام فى مراحله التاريخية: هندية وفارسية ورومية وما حملته من ثقافات متنوعة منها المقبول ومنها المرفوض، لكن كان لها أثرها فى ظهور آراء ومعتقدات أثرت سلبًا وإيجابًا فى المسار التاريخى للفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالأصول والمصادر الأولى من كتاب وسنة. وظهر كرد فعل على ذلك الدخيل من الآراء من يعارض الفلسفة ويتنكر لها ويوجه الاتهام إلى المشتغلين بها برقة الدين وضعف العقيدة، وهذا ساعد بدوره على

كراهية الاشتغال بالفلسفة والفلاسفة على سواء، خاصة بعد أن قرأوا فى تراث الفلاسفة الأوائل ما نقلوه عن اليونان من عقيدتهم فى القول بفعل الأجرام السماوية وقدم العالم، والعلة والمعلول.... إلخ. ووجدوا أن ذلك يتناقض مع عقيدة التوحيد الخالصة... فحذروا المسلمين من الاشتغال بها.

٣- **حوار الثقافات**: وأعنى بذلك حوارنا المعاصر مع الغرب الذى يبغى الهيمنة على مقدرات العالم اقتصاديًا وثقافيًا وحضاريًا، مما لا شك فيه أن واقعنا المعاصر يشهد بذلك ويؤيده، وإن حاول البعض أن يتنكر لهذا الواقع فإن ذلك لا يغيره، فإن حضارة الغرب اليوم قد مدت سلطانها على كل نواحى الحياة على الكرة الأرضية، ولم تخل أمة من الإفادة منها حتى وإن تنكرت لها وكرهتها. ويختلف موقف الأمم والشعوب من حضارة الغرب وفلسفتها فى الكون والحياة فمن الشعوب من استبدل هوية الغرب بهويته: فلسفة وثقافة وحضارة، وتعبد بنظرة الغرب إلى الكون والوجود والإنسان.

ومن الشعوب من اعتز بهويته وحافظ على شخصيته الثقافية والحضارية ولم يعبأ بحضارة الغرب ولا بفلسفتها، ولعل خير مثال على ذلك موقف الصين من الحضارة الغربية وفلسفتها.

لكن الأمة الإسلامية كان لها موقفها المتفتح على كل الثقافات ومنها الحضارة الغربية، فكان تراثها تجسيدًا لأصالتها وعنوانًا ورمزًا لهويتها التى يجب أن تعتز بها وتحافظ عليها، وفى نفس الوقت طلبت وتطلب الإفادة من المشترك الإنسانى فى كل الحضارات؛ لأن الحق غاية المسلم ولا يعنيه من أى مصدر أخذه ما دام حقًا ...

ولا شك أن عصرنا الحاضر بمشكلاته العالمية ومحاولة الغرب الثقافى

والأيديولوجى أن يبسط هيمنته على العالم بواسطة تفوقه التقنى فى مواجهة العالم الإسلامى المتخلف اقتصاديًا وعسكريًا قد خلق ذلك نوعًا من الإحساس بالانكسار النفسى، وتسللت روح الانهزامية بين أبناء الجيل، خاصة جيل الشباب بعد ما رآه من تفوق الغرب، وانفراد أمريكا بالساحة العالمية، وسيطرتها على مقدرات الشعوب. إن هذا الإحساس بالهزيمة النفسية ساعد على الشعور بتقليد الغرب تقليدًا تجاوز محاولة التشبه بهم فى استثمار نتائج العلم التقنى إلى التشبه بهم فى العادات والتقاليد والثقافة واستدعاء فلسفتهم المادية وأساليبهم فى التفكير والعلاقات الاجتماعية، حتى أصبحت بعض البلاد العربية للأسف الشديد نسخة رديئة للمجتمع الأوروبى.

ولما كانت حضارة الغرب وفلسفته تتأسس على فلسفتهم فى المادة ومبادئها، وتنبثق منها لتعود إليها. كانت هذه الفلسفة مناقضة للعقيدة الإسلامية، وفلسفة الإسلام تعتمد على مرجعيتها على القرآن الكريم الذى ما زال وسيظل العمود الفقرى للفكرة الإسلامية (فلسفة وحضارة، وثقافة وعلومًا، فكرًا واعتقادًا وسلوكًا) ومن هنا بدت مناهجنا الفلسفية المعاصرة ممزقة بين انتماءين متناقضين: انتماء غربى مادى: يتمثل ذلك فى مؤلفات الأساتذة الذين تربوا على موائد الغرب فلسفة وثقافة وتفكيرًا وتقليدًا، وانتماء إسلامى: يتمثل فى الجيل المتلقى الذى يعمر قلبه ووجدانه الإيمان بالعقيدة الإسلامية التى تتناقض فى أسسها وغاياتها ومبادئها وقضاياها مع الفلسفة المادية التى يتلقاها عن معلمه فى قاعات الدرس والمحاضرة، وهذا التناقض بين الانتماءين أدى بجيل الشباب إلى الانحراف العقدى والفكرى

والسلوكى، وأفرز جماعات متطرفة اجتماعيًا وفكريًا.

ولما كان الفكر الفلسفى فى الإسلام قد بدأ فى بواكيره الأولى فى مؤلفات علماء الكلام خلال القرون الثلاثة الأولى، وكان حوارهم مع أهل الملل والمذاهب الأخرى يجسد نظرة الإسلام ويحدد موقفه من القضايا المطروحة للحوار حول الوجود .. الله.. النبوة .. البعث.. الروح، وكانت معظم آراء المتكلمين تستمد أصولها من الكتاب والسنة نصًا أو تأويلًا، وكان مفكرو المعتزلة هم فرسان هذا المجال حتى القرن الرابع الهجرى.

تم ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية حاملة معها أفكار أرسطو عن المحرك الأول، ونظرية المثل عند أفلاطون، ومفهوم السعادة عند سقراط، وتحليلات اليونان لأصل الكون وهل أصله الوحدة (الذرة) أو الكثرة (الماء والتراب والهواء والنار) وانبهر بهذه الفلسفة فريق من المفكرين ابتداء من الكندى فالفارابى فابن سينا فابن رشد، وأخذوا جاهدين فى التوفيق بين هذه الفلسفة الوافدة وتصوراتهم عن الكون والإنسان وما تلقوه عن الوحى فى الفكر الإسلامى حول هذه القضايا، وكانت وسيلتهم إلى إكمال هذه المحاولة هو تأويل النصوص الدينية لصالح آراء مفكرى اليونان وفلاسفتهم.

وأخذت خصوصية المصطلح الإسلامى تذوب أو تتلاشى فى المصطلح الجديد الوافد، وأخذت المفاهيم اليونانية تحتل مكانة المفاهيم الإسلامية فى التعبير عن الفلسفة الإسلامية، فاحتل مفهوم واجب الوجود مكانة مفهوم الربوبية، واحتل مفهوم المحرك الأول عند أرسطو مكانة مفهوم الخالق فى الفلسفة الإسلامية، واحتلت صفات المحرك الأول مكانة صفات الخالق

الواردة فى القرآن الكريم.

واحتلت قوى النفس المعرفية مكانة الوحى فى الإسلام، واحتل مفهوم الحكيم مكانة مفهوم النبوة فى الإسلام.

وتلاشى مفهوم البعث ليظهر مكانه مفهوم السعادة الروحية للنفس بعد فناء الجسد. وتبع ذلك الانقلاب الفكرى انقلاب آخر فى العلاقة الحاكمة بين مفهوم الفلسفة الإسلامية ومرجعيتها المحددة لخصوصيتها وهويتها وهى الكتاب والسنة.

وبدأ المتكلمون الذين كانوا يمثلون الخصوصية الحضارية للفلسفة الإسلامية يميلون شيئا فشيئا إلى ذلك الاتجاه الفلسفى الوافد عملا بمبدأ (تبادل الأسلحة) فطغى المصطلح الفلسفى الوافد على المصطلح الإسلامى الأصيل فى كتابات علماء الكلام، وتبع ذلك بالضرورة إلزامات عقلية ناتجة عن استعمال المصطلح الوافد، ولم يسع المتكلمون الانفكاك منها فتسلل إلى فكرهم المفاهيم والمعانى الوافدة دون أن ينتبهوا إلى هذه الخطورة.

ولعل من يقرأ تراث أو شروح الطوسى والرازى وأبى البركات البغدادى وعضد الدين الإيجى وتعليقاتهم على ابن سينا يدرك خطورة الأثر الفلسفى الوافد على خصوصيتهم الفلسفية الإسلامية . ولم تعد تقرأ فى تراث هؤلاء إلا ألوانا من الحوار العقلى التجريدى حول الألفاظ ودلالتها ولوازمها وأصول المذاهب العقلية وما يلزم عنها، والناظر فى مؤلفات المناظرين منهم يجد نفسه يحرث فى حقل لا يجنى منه إلا الخلاف بين الفرق وعلماء المذاهب ،مما دعت معه الحاجة إلى إعادة النظر فى هذه الفلسفة من حيث المضمون والمنهج والتحليلات وإعادة الصياغة.

[٢] ضرورة إعادة القراءة:

من هنا كانت الحاجة ملحة فى إعادة قراءة تراثنا الفلسفى بوعى، نعيد إليه ما أهمله التاريخ من الخصوصية الإسلامية التى تؤكد ذاتية الأمة وأصالة قيمتها الحضارية، يحتاج منا تراثنا الفلسفى أن نعيد قراءته لنميز بين الأصل والدخيل، بين ما يعبر عن ذاتية الأمة وخصوصيتها، وما هو وافد إليها من الثقافات الأخرى، نميز بين المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة التى مزقت شمل الأمة وفرقت جماعتها.

إن أمتنا الإسلامية تعيش بؤرة الصراع العالمى فكرا وثقافة وحضارة، وما لم تتشبث بخصوصيتها الثقافية، وتعبر عن ذلك فى فكرها الفلسفى؛ فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها . فمن المعلوم أن هذه الأمة تحمل إلى العالم كله رسالة النور وطوق النجاة ،وتعيش مع الحضارات الأخرى سنة التدافع الوجودى فتأخذ وتعطى وتتأثر وتؤثر، وفى هذه الحوارات التدافعية يتنافس المتنافسون، ويتمسك كل فريق بخصوصيته ويعتز بهويته، وهذا أمر مشروع لكل صاحب فكرة ومذهب، مادام يملك برهان الحق ودليل الصواب ونحن أقدر الناس على ذلك؛ لأننا أصحاب كتاب ودعاة حق وأهل عقيدة سماوية لها منهجها فى تفسير الوجود والإنسان والمبدأ والمصير وعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع، وينبغى أن يتأسس على ذلك المنهج تحليلات المفكر المسلم للوجود بداية ونهاية ووظيفة، ويستمد منه نظره البرهانى فى تفسير العلاقات السببية المتبادلة بين ظواهر الكون وعلاقة الإنسان بذلك.

الوجود فى الفلسفة الإسلامية:

إن هذا المنهج يتميز عن المناهج الفلسفية الأخرى بأنه يحمل فى دلائله عوامل البرهنة اليقينية على صحة المسائل الفلسفية التى يتناولها إقناعا للعقل واقتناعا بالقلب واطمئنانا للنفس، بحيث تكتمل فى الإنسان قناعة كل إمكاناته المعرفية العقلية والوجدانية على سواء، كما يتميز هذا المنهج بنظرته التحليلية للوجود الإنسانى عن الفلسفات الأخرى التى تجعل من الوجود والإنسان كما مؤقتا وكيفا عابثا لا غاية له فى الوجود إلا لحظة يعيشها الإنسان يشبع فيها رغباته الحيوانية، ثم ينتهى الموقف كله بنهاية مأسوية عبثية هى الفناء المطلق ..أشبه بفصول الملهاة..

أن فلسفتنا الإسلامية مؤسسة على منهج ربانى يجعل للوجود معنى وللإنسان وظيفة، فالوجود لم يخلق عبثا لا غاية له ولا هدف منه. بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب، وعالم الشهادة فى فلسفتنا لم ينفصل فى حكمته الوجودية عن عالم الغيب، وليست المادة فى الفلسفة الإسلامية مستقلة فى وجودها عن قانونها الغيبى الحاكم لها والمتحكم فيها، كما هو الشأن فى المذاهب المادية قديمها وحديثها.

والوجود فى فلسفتنا ليس مبتوت الصلة بخالقه كما هو الشأن فى فلسفة أرسطو ورأيه فى المحرك الذى لا يتحرك، وإنما هو آية دالة على خالقه وتحمل مفرداته دلائل صفاته.

وتحليلات أسمائه الحسنى من العلم والحكمة والإرادة والقدرة.... إلخ.

والوجود فى فلسفتنا صفحة معروضة على العقل الإنسانى ليقرأها

بتكليف إلهى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] فالخلق كله من عالمه العلوى والسفلى صفحة معروضة على العقل أن يقرأها باسم (ربك) وليس باسم المادة ولا باسم الصدفة ولا باسم الطبيعة أو الدهر، يقرأ فيها ويقرأ منها على قدر استطاعته.

والوجود فى فلسفتنا يحمل فى قوانينه برهان العقل على فساد رأى القائلين بالصدفة أو المادة أو الدهر، فما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت وكل شىء عنده ومقدر، ومهمة الفيلسوف أن يجلى هذه المعانى فى تحليلاته الفلسفية، ويعيد إليها اعتبارها المهدر فى تفسيراته العلمية، وتلك مهمة لا يفطن إليها إلا أولو الألباب، وأصحاب العزائم والنوايا الصادقة .

كما إن الإنسان فى فلسفتنا الإسلامية ليس كائنا بيولوجيا يعيش ليأكل، ويحيا ليشبع رغباته، ويلتذ بشهواته البهيمية، وإنما هو كائن متسامٍ جمعت بنيته الوجودية بين الجانب الترابي: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح: ١٧] والجانب الروحى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] وهو مكلف بمقتضى إيمانه أن يوفق بين هذين الجانبين (الترابى والروحى) فى سلوكه البشرى وتلك خصوصيته الإنسانية دون سائر الكائنات الأخرى. إنه الكائن الوحيد المكلف بأن يجمع فى سلوكه بين متطلبات المادة والروح فى توازن يجسد قول الرسول ﷺ: «أن لربك عليك حقًّا، وأن لبدنك عليك حقًّا، فأعط كل ذى حق حقه» إن الإنسان فى فلسفتنا الإسلامية له خصوصية تميز بها عن سائر الكائنات الأخرى تجسدت فى وظائفه القرآنية:

١- الاستخلاف فى الأرض ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠].

٢- تعمير الكون ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

٣- العبودية الاختيارية للخالق ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

إن هذه الأوامر الثلاثة تحدد وظيفة الإنسان المسلم وتميزه بها عن سائر الكائنات، ومهمة الفيلسوف المسلم أن يجلى هذه المعانى فى تحليلاته الفلسفية لعلاقة الإنسان بالكون وعلاقته بالخالق وتلك لعمرى خصوصية لا نظير لها فى أى مذهب فلسفى آخر، وما لم تكن هذه المعانى واضحة المعالم (تحليلا وتأملا وتذكيرا بها) على لسان الفيلسوف فى قلمه؛ فإنه لا يعبر عن خصوصية هذه الفلسفة، ولا يحمل طابعها ولا هويتها.

[٣] النظر الفلسفى أمر إلهى:

ومما ينبغى الالتفات إليه أن النظر العقلى فى تراثنا الفلسفى يستمد أصالته من الأمر الإلهى بوجوب النظر وإعمال العقل فى الكون ومفرداته، والإنسان وقضاياه، وفى النفس ومصيرها، وذلك كله مطلب شرعى وتكليف دينى.

ويطرح القرآن الكريم أمام العقل الأسئلة العديدة لتكون نموذجا لحوار العقل مع الوجود كله بداية ونهاية وغاية ووظيفة.

١-فعلى المستوى الوجودى العام قال تعالى:

﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ

ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]

﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

٢-وعلى مستوى الوجود الإنساني وغايته قال تعالى:

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥] .

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴾ [المؤمنون: ١٢].

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح: ١٧] .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦] .

٣-وعن وظيفة الإنسان الوجودية قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١].

٤-وعن وظيفة الكون كله قال تعالى:

﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] .

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١] .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨].

٥-وعن علاقة الإنسان بخالقه قال تعالى:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] .

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] .

﴿ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

٦-وعن حرية الإنسان وعلاقته بالإله قال تعالى:

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢].

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

إن معنى الوجود والعدم فى الفلسفة الإسلامية ما لم يرتبط بهذه التساؤلات العقلية التى أشار إليها القرآن الكريم ينطلق منها ويعود إليها بالإجابات البرهانية لا يكون بذلك معبرا عن روح القرآن، بل أنه لا يجعل للوجود معنى ولا لحياة الإنسان فيه هدف، بل يكون الأمر كما قال الشاعر الجاهلى:

أرى المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

أو كما قيل فى الجاهلية: إن هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع .

وهذا هو الشأن فى الفلسفات المادية قديمها وحديثها على السواء .

إن تجديد فكرنا الفلسفى يحتاج من مفكرى الأمة إجراء عملية

استئصال للقضايا والمشكلات الزائفة على تراثنا الإسلامى نميز، فيها بين ما هو أصيل يعبر عن هوية الأمة الثقافية وثوابتها الدينية ،وما هو زائف ودخيل يعبر عن واقع غير واقعنا ومشكلات غير مشكلاتنا، ويطرح علينا حلولا ليست لها مشكلات عندنا أصلا تحت مسميات خادعة كم أساءت إلينا وأضرت بواقعنا الثقافى والاجتماعى على سواء...

ولا ينبغى أن يظن أحد أننا ندعو إلى قطيعة مع الثقافات أو الحضارات الأخرى، أو ندعو إلى الخصومة معها. لا إن هذا لم ولن يكون مقصدا لأى مفكر واع بأبعاد القضية الحضارية التى ينتمى إليها، كما أن ذلك لم يكن هدفا ولا مقصدا شرعيا أشارت إليه مصادرنا الفكرية بل إن العكس هو الصحيح والالتقاء والتعاون والتعارف هو الهدف وليس القطيعة أو الخصومة. ولكن الذى نلفت النظر إليه هو الاحتفاظ بالخصوصية الإسلامية فى نظرنا الفلسفى للوجود وفلسفة العلوم، والنظرة للإنسان وقضاياه، وللحرية ومفهومها، وللإنسان ووظيفته وعلاقته بالكون، نريد أن نحتفظ بخصوصية النظرة الإسلامية لعالمى الغيب والشهادة وعلاقة الإنسان بكل منهما.

[٤] علاقة الإنسان بالكون (قراءة توحيدية):

لقد احتل الإنسان وقضاياه الاجتماعية مكانة ومكانا فى تراثنا الدينى لا نظير لها فى تراث أمة من الأمم الأخرى . فكان الحديث عن نشأته فى بطن أمه جنينا، ثم طفلا وشابا، ثم شيخًا هرمًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ

نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٧].

وكان الحديث عنه فى مرحلة وجودية ثانية هى الوجود الأخروى، وكان الاهتمام الأكبر فى مرحلته الحياتية بين الوجودين المادى الدنيوى والآخر الغيبى، وكان الحديث أكثر وأكثر عن علاقته بالكون وما فيه من عناصر الكون الطبيعية ومن فيه من أفراد المجتمع . وكانت قيمة الإنسان فى كل هذه المناسبات هى الأعلى والأرفع والأكرم من قيمة كل ما عداه من سائر الكائنات الأخرى انطلاقا من تكريم الخالق له فى صور متعددة ،منها أن الخالق قرر هذه الحقيقة فى صيغة الإعلان عنها كمبدأ وجودى عام﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومنها أن الخالق جعل كل ما فى العالم مسخرًا فيه لخدمة الإنسان وخاضعًا لإرادة الإنسان فيه وإرادته منه جاءت القضية فى صيغة تقرير المبدأ العام: وَسَخَّرَ﴿ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً ﴾ [الملك: ١٥].

ومنها أن الخالق جعل حرية الإنسان (فى الفعل والاعتقاد والـترك رهنًـا

بإرادته): ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] .

ومنها أن الخالق يمنح الإنسان وظيفة لم يمنحها لغيره من المخلوقات حتى الملائكة وهى وظيفة الاستخلاف فى الأرض﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

وليس المجال هنا لتفصيل القول عن مظاهر تكريم الله للإنسان، كمخلوق جمع الخالق فى بنيته التكوينية بين عناصر المادة والروح؛ ليكون مجمعا بين عالمى الغيب والشهادة، وهمزة الوصل بين عالمى الفناء والبقاء فى صورة تجسد مبدأ التوحيد بين الإنسان والكون؛ فى صور معرفية، تتجلى مظاهرها فى أشكال متعددة، كما تتمثل هذه الوحدة فى وحدة البدء ووحدة المصير، فالبدء كان من الله: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، والمصير يكون إلى الله: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وتتمثل فى وحدة التكوين والعنصر فإن عناصر الكون الطبيعى واحدة لم ولن تتغير سواء تجسدت هذه العناصر فى شكل إنسان أو شكل حيوان أو نبات أو جماد .

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧-١٨]، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] .

وتتمثل هذه فى وحدة النظام الحاكم لكل ذرات هذا الكون من سمائه إلى أرضه بما فيه ومن فيه الإنسان والحيوان والنبات والجماد. فالقانون الحاكم واحد وإن تعددت مظاهره الكونية فى النشوء والصيرورة والمصير، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿ **قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .

وتتمثل هذه الوحدة فى أن مصدر القانون الحاكم للكل واحد وليس متعددا، فالذى خلق هو الذى قدر فهدى، قال تعالى: ﴿ **أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالأمر هنا يتعلق بتقدير الخلق كما وكيفا. وفى كل مخلوق بحسبه فعالم الإنسان له أمره التكوينى والوجودى، وعالم النبات والحيوان والجماد كل له أمره الذى يخصه تكوينا ووجودا. بداية ونهاية قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا** ﴾ [فصلت: ١٢].

ويرتبط بمظاهر هذه القراءة التوحيدية فى كل مستوياتها المتعددة نوع من التكريم بأفضلية الإنسان عن سائر ما عداه، وينفرد بخصوصية تميزه عن غيره فى مظاهر متنوعة، من مظاهر هذه الخصوصية أنه الكائن الوحيد المؤتمن على هذا الوجود كله من سمائه إلى أرضه (بحثًا وتأملًا واكتشافًا وتسخيرًا وتعميرًا).

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

وهذا الموقع الوجودى للإنسان جعله مؤهلا ليحتل مكانة الخلافة والسيادة على الكون بأمر من الخالق، حسب علمه بأهلية الإنسان لهذه المكانة، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٠] .

ومن مظاهر هذه الخصوصية أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى أنعم عليه الخالق بأن خلقه بيده دون غيره قال تعالى: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ** ﴾ [ص: ٧٥].

ومن مظاهر هذه الخصوصية أنه يفعل بمقتضى إرادته واختياره وليس بمقتضى الطبع والغريزة كبقية الحيوانات. وكان من آثار هذه الخصوصية أنه الكائن المؤهل للتكليف الشرعى أمرًا ونهيًا، وحارسا على حفظ القيم الأخلاقية فى واقعه الاجتماعى.

وكل هذه المعانى تمثل روح الثقافة الإسلامية ورصيدها الحضارى التى يجب أن يصدر عنها كل فكر فلسفى يتصل بالإنسان والكون والوجود، كما أن فلسفة الوجود فى الإسلام لا يقف الحديث عنها عند مجرد الوجود اللحظى فى هذه الحياة الدنيا فقط؛ بل يتعداه إلى البحث فى الوجود الأبدى الذى جذرته عقيدتنا فى فكر كل مسلم ووجدانه، فإن حياة الإنسان ليست قاصرة على اللحظة الراهنة التى يحياها فى دنياه أو تنتهى بمجرد مفارقة الروح للبدن بالموت، كما هو الشأن فى الفلسفات المادية، بل أن هذا الوجود

اللحظى مقدمة للوجود الأبدى الخالد الذى بشرت به عقيدتنا الإسلامية إذ لو كان الوجود قاصرًا على اللحظة الراهنة لكان ضربًا من العبث، ومظهر الفوضى التى لا مبرر لها ولا حكمة منها، ولذلك كان الإيمان بخلود النفس مظهرا من مظاهر الخصوصية الإسلامية؛ التى ينبغى أن ينعكس أثرها فى فكرنا الفلسفى ليكون الإيمان بها والبرهنة على صحتها مدخلا للاطمئنان القلبى، ومصدرا من مصادر النفس المطمئنة، حيث ينفتح أمامها أبواب الأمل فى رحمة الله، وتكون مبعثا للإحساس بالسعادة ومحاربة ونفيًا لكل ألوان اليأس؛ مخافة أن يتسرب إلى النفس فيصيبها بالقنوط، وهذا لا يتحقق إلا إذا انعكست هذه المعانى فى فكرنا الفلسفى.

لقد طغت المشكلات الفكرية الوافدة بتحليلاتها الفلسفية على تراثنا الفلسفى، وتراجعت النظرة الإسلامية وتحليلاتها عن مكانها ومكانتها لتحتل مكانتها النظرة الوافدة، فأصبحت التحليلات الفلسفية عندنا صورة مشوهة لنظرة الآخر إلى الوجود والإنسان والقيم الأخلاقية، ومنذ عصر الترجمة فى العهد العباسى نجد نظرة المشتغلين بالتحليلات الفلسفية لهذه القضايا مشبعة بالروح اليونانية وفلسفتها، أو الروح الفارسية، أو الغنوص المسيحى فى العصر الوسيط. وإذا حاول البعض أن يبحث عن مكانة أو مكان للنظرة الإسلامية فيكون منهجه الوحيد هو تأويل النصوص الدينية لصالح التحليلات الفلسفية الوافدة إما عن الحضارة اليونانية أو الفارسية، نجد ذلك واضحا فى تراث الفارابى وابن سينا والمدرسة المشائية على وجه الخصوص، وقد نجد نفس الأثر واضحا فى تراث متأخرى المتكلمين ابتداء من الآمدى فالطوسى فالبغدادى فالرازى فالإيجى - كما سبقت الإشارة إلى

ذلك- وهذا يدعونا إلى إعادة النظر فى صياغة هذا العلم ومنهجه وأسلوبه وقضاياه ومفرداته بحيث يرتبط بالواقع الذى يعيشه المسلم المعاصر ويعالج مشكلاته المعاصرة؛ حتى نؤدى الأمانة التى أسس هذا العلم من أجلها؛ وهى حراسة العقيدة والدفاع عنها، وتأييدها بالبرهان العقلى بدلا من الاقتصار على تلك التهويمات التجريدية التى تفصل الدارس والباحث عن واقعه ومشكلاته.

لقد عاش القدماء مشكلاتهم الثقافية والعقائدية، وكانوا أمناء فى دفاعهم عن العقيدة وفى تناول مشكلاتهم وقضاياهم التى عالجوها بمنطقهم هم .. ولكى نكون أمناء على وظيفة علم الكلام فيجب علينا أن نفعل كما فعل القدماء، ونحسن توظيف علم الكلام فى علاج مشكلاتنا المعاصرة لنا الآن وهى تختلف بالضرورة عن مشكلات القدماء، كما تختلف أيضا عن مشكلات غيرنا من الأمم وأصحاب الحضارات المختلفة .

[٥] تراثنا الفلسفى بين قراءتين:

وأقصد بتراثنا الفلسفى هنا (علم الكلام والفلسفة الإسلامية) لأن هذين العلمين هما جناحا الفكر الفلسفى فى تراثنا القديم، وهذان العلمان قد احتلا مكانة مرموقة فى تراثنا ولا زالا إلى يومنا هذا، فما زالت قاعات الدرس الأكاديمى حافلة بآراء المدرسة المشائية.

(الفارابى وابن سينا وابن رشد) فى النفس والسعادة، والوجود والخلاء والملاء، وآراء أرسطو فى الإلهيات التى أخذت بكل من الفارابى وابن سينا ولم يمسها شيء من النقد إلا على يد الغزالى فى كتابه العظيم التهافت، الذى

بين تهافت الفلاسفة منهجيا فى البنية العقلية التى أسسوا عليها موقفهم من قضايا الميتافيزيقا.

ولا شك عندى أن هذا الدور العظيم الذى قام به أوائل علماء الكلام والفلاسفة قد أدى مهمة كبيرة فى الدفاع عن الإسلام وعن العقيدة، واستطاعوا أن يبرهنوا عقليا على صحة آرائهم وعقيدتهم وأن يدحضوا آراء المخالفين لهم فى العقيدة وأن يجمعوا فى حوارهم مع المخالفين بين صحة الدليل النقلى والعقلى معا.

ثم انتقل تراثنا الفلسفى وعلم الكلام إلى أوربا عبر روافد تاريخية معروفة، فكان الشرارة التى أيقظت أوربا من سباتها، وساعد على الانتقال بها من عصورها المظلمة إلى عصور التنوير والنهضة، فقد كان التخلف والجهل والشعوذة والخرافة تضرب أستارها على أوربا كلها، وكانت المعتقدات الخرافية تسيطر على عقول أبنائها فكرا وثقافة وسلوكا واعتقادا.

ولم تبدأ أوربا تتخلص من هذه الخرافات إلا بعد أن قرأت هذا التراث الإسلامى قراءة واعية.

لقد وقفت أوربا على عناصر النهضة وعوامل التحضر فى العلم الوافد إليها من بلاد المسلمين فدرسوه ووعوه وأدركوا أهميته، وأخذوا فى الاشتغال به تعليما وتعلما، إلى أن ملأ عليهم حياتهم العلمية والثقافية على سواء. ومؤرخو الحضارات وعلماء التاريخ قد أشاروا إلى الفروق الحضارية وعوامل النهضة التى عاشتها أوربا قبل التعرف على الحضارة الإسلامية وبعدها، لقد كان أهم عوامل النهضة التى اهتمت بها أوربا فى الحضارة الإسلامية هى

العلوم الكونية والمنهج العلمى الذى تعرفوا على عناصره فى الحضارة الإسلامية. وأدركوا أثر الحضارة الإسلامية فى الرقى والتحضر الذى انتقلت به أوربا من عصور التخلف الثقافى والاجتماعى إلى عصور التنوير والنهضة، والذى انتقل بها من التبعية المطلقة إلى الريادة فى العلم والتكنولوجيا المعاصرة.

لقد ركز العلماء فى أوروبا على قراءة تراثنا الفلسفى ممزوجا بروحه العلمية، وكان موقف المسلمين من هذا التراث هو الاكتفاء بقراءة الجانب الفلسفى فى الإلهيات الممزوج بالروح اليونانية المناهضة للإسلام، وكان من الطبيعى أن يتحفظوا على كثير مما جاء فيه، ورفضه البعض الآخر أحيانًا. وانعكس هذا الموقف تلقائيا على الجانب العلمى من هذا التراث. فكان حظه منا هو الآخر المخاصمة له وللمشتغلين به، وكان ذلك الموقف هو بداية الخطيئة التاريخية ولا أقول الخطأ. ولم نستيقظ لننهض بالتوبة من هذه الخطيئة إلا بعد أن تخلفنا عن قطار العلم بعصور وعصور، لقد نشأت الجفوة بين تراثنا الفلسفى وتراثنا العلمى على أثر الجفوة والخصومة للفلسفة اليونانية فى الإلهيات وقضايا الميتافيزيقا، ولم نتنبه لضرورة التفرقة بين هذين الجانبين حتى لا نتحفظ على الجانب العلمى متابعة للجانب الفلسفى لاختلاف الموقفين بينهما، ومن هنا فلم نقرأ ابن سينا الطبيب والفلكى والفيزيائى كما قرأناه فيلسوفا، ولم نقرأ ابن رشد الطبيب كما قرأناه ناقدا للأشعرية، ولكن أوربا قرأت ابن سينا العالم الطبيب والفيلسوف معا، وقرأت ابن رشد الطبيب والعالم والفيلسوف فوضعوا أيديهم على العلم السينوى والرشدى والمنهج العلمى الذى تبناه هذا العالم والفيلسوف معا،

كما قرأوا ابن الهيثم والبيرونى والخوارزمى وابن النفيس والرازى الطبيب ووعوا ذلك تمامًا، ونهضوا به فى الوقت الذى توقفنا نحن عند قراءة الجانب الإلهى فى فلسفة هؤلاء المفكرين، ولما كان نصيبها منا هو الخصومة والرفض فقد انعكس هذا على تراثهم العلمى فلم يحفل منا بالقدر اللائق به، ولم نعطه حقه فى الاهتمام به كما فعلت معه أوربا. وكان لهذا الموقف أثره السيئ فى عدم الإفادة العلمية من تراث هؤلاء، فهاجر إلى أوربا واكتفينا منه بالجانب الميتافزيقى لاتصاله بالعقيدة، ولم ننتبه إلى خطورة هذا الموقف إلا بعد إحساسنا بالتخلف الذى نعانى منه الآن وصار الأمر كما قال الشاعر:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

لقد كانت مفردات الثقافة الأوربية قبل احتكاكها بالحضارة الإسلامية قاصرة على ما يمليه عليهم رجال الكنيسة من شعوذة وخرافات وكهانة، وبعد القرن الثالث عشر وجد علماء الحضارة أن عناصر المنهج العلمى وأنوار العلم بدأت تظهر آثاره فى مؤلفات مجموعة من العلماء فى أوربا وأخذت مجموعة العلوم الكونية (الكيمياء، الفيزياء، الرياضة، الطب، الفلك ... إلخ) تحتل مكانها فى قاعات الدرس، وتسهم فى بناء الفرد والمجتمع ثقافيا وسياسيا وخلال أقل من قرنين سيطرت لغة العلم ونور العقل على أوهام الخرافة والشعوذة، وبدأت أوربا نهضتها وظل المسلمون يراوحون مكانهم...

لقد قرأت أوربا تراثنا الإسلامى الذى جمع بين النظرة الفلسفية والعلمية معًا فى المؤلف الواحد وللمفكر الواحد، فأفادوا منه المنهج العلمى على مستوى النظر والتطبيق معا واكتفينا بقراءة تراثنا الفلسفى النظرى.

لقد قرأ الغرب تراثنا بجناحيه (العلمى والفلسفى) وقرأنا نحن أحد هذين الجناحين واكتفينا به عن الآخر فتحرك الغرب بقراءته وتوقفنا نحن عنده، ووقفنا به نختلف حوله ونختلف فيه، وإذا حاول البعض أن يلفت النظر إلى ضرورة إعادة القراءة والتجديد فكرا ونظرا ومنهجا متمشيا مع حركة الحياة وتطور العلم؛ كان حظه الاتهام والنيل منه، وكانت النتيجة تبعا لذلك هى ما يعيشه عالمنا الإسلامى تخلفا وجهلا وفقرا واختلافات، ولقد أصبحت إعادة القراءة لهذا التراث الفلسفى ضرورة ملحة، نقرأه بعين ناقدة نكشف بها عيوبنا لأنفسنا حتى نكون أمناء فيما نقول، لقد بدت العلة مستعصية على العلاج واستفحل الداء واتسع الخرق على الراقع كما يقولون، وأصبح من الضرورة أن نتساءل حول كثير مما يلقى فى قاعات الدرس الأكاديمى. وما علاقته بالمسلم المعاصر وما هو دور الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام فى النهوض بالواقع الذى نعيشه. والله من وراء القصد.

كتب للمؤلف

أولاً: سلسلة تصحيح المفاهيم: صدر منها:

١) الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية.
٢) منهج السلف بين العقل والنقل.
٣) الأصولية والحوار مع الآخر.
٤) فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامى والتغريبى.
٥) تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين.
٦) الوحى والإنسان قراءة معرفية.
٧) خلل فى مسيرة الأمة.
٨) الصراع العربى الإسرائيلى .. قراءة فى الجذور التوراتية.
٩) الغيب والشهادة كما تحدث القرآن الكريم.
١٠) سؤال الهوية. هويتنا الإسلامية فى مفترق الطرق.

ثانيًا: مؤلفات:

١) الإمام ابن تيمية وقضية التأويل.
٢) قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى.
٣) من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة.
٤) نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان.
٥) قضية التوحيد بين الدين والفلسفة.
٦) دراسة أساسية لمشروع قانون إسلامى لحماية البيئة بتكليف من الاتحاد العالمى لحماية البيئة (طبع بالإنجليزية والفرنسية والألمانية) بالاشتراك مع آخرين.
٧) الفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام.

٨) فى المنطق ومناهج البحث بالاشتراك.
٩) عقائد وتيارات فكرية معاصرة بالاشتراك مع آخرين.
١٠) من قضايا الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب واستلاب الهوية.
١١) من قضايا علم الكلام فى ضوء الكتاب والسنة.
١٢) فى علم الأخلاق قضايا ونصوص.

ثالثًا: تحقيق التراث:

١) دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية – فى ستة أجزاء.
٢) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية – الأشرار – ليحي بن حمزة العلوى.
٣) كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله لابن تيمية.
٤) كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية.
٥) عيوب النفس ودواؤها فى القرآن الكريم للسلمى.
٦) تقريب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.
٧) أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر لأبى الحسن الأشعرى.
٨) الإشارة إلى مذهب أهل الحق للشيرازى.
٩) الانتصار فى ذكر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين لشيخ الإسلام ابن تيمية.

رابعًا: بحوث ودراسات نشرت بالمجلات الثقافية:

١) الدين والدولة بين التاريخ والواقع – مجلة الثقافة – مصر ١٩٧٠م.
٢) رسالة إلى حكومات العالم الإسلامى – مجلة الدعوة ١٩٧٦م.
٣) الله والعالم بين النظر الفلسفى والحقائق الدينية مقارنة بين منهجين – دار العلوم ١٩٨٣م.
٤) المنطلقات الفكرية للأصولية المتطرفة – مجلة الدراسات العربية للعلوم الإنسانية – الكويت ١٩٩٥م.

٥) لغة الحوار بين الإسلام والغرب – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٦م.
٦) أزمة عقل أم أزمة أنظمة – مؤتمر المجلس الأعلى للشون الإسلامية ١٩٩٧م.
٧) دار العلوم وتاريخ الدرس الفلسفى فى مصر – الجمعية الفلسفية المصرية ٢٠٠١م.
٨) نحن والآخر حوار أم صراع – ضمن أعمال المؤتمر الدولى السابع لدار العلوم ٢٠٠٢م.
٩) الخطاب الدينى المفترى عليه – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٣م.
١٠) ابن تيمية الإمام المفترى عليه – جامعة الملك عبد العزيز – كلية الآداب ١٩٨٢م.
١١) الحضارة الإسلامية وتكريم الإنسان – منبر الإسلام - يوليو ٢٠٠٣م.
١٢) ابن رشده وأثره فى الفلسفة اليهودية – حولية كلية الشريعة- قطر ١٩٩٣م.
١٣) محمود قاسم فى صحبة ابن رشد – كتاب تذكارى صدر عن قسم الفلسفة الإسلامية – دار العلوم ١٩٩٥م.
١٤) الإمام الجوينى وتطور الفكر الأشعرى – مؤتمر الجوينى – قطر ١٩٩٧م.
١٥) يوسف القرضاوى ومنهجه التجديدى.
١٦) فقه النوازل (الأقليات الإسلامية نموذجًا) – مؤتمر مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – كندا ٢٠٠٨م.
١٧) فلسفة التحكيم وأثره فى استقرار الأسرة المسلمة – مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – الكويت ٢٠٠٩م.

١٨) حقوق الطفل فى الإسلام – مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا – الكويت ٢٠١١م.

١٩) السلف وأثرهم فى تجديد الفكر الإسلامى – مكة المكرمة – رابطة العالم الإسلامى ٢٠١١م.

٢٠) النظرية الفقهية والتطور فى الفتوى – مؤتمر الفقه فى عالم متغير – سلطنة عمان ٢٠١٢م.

٢١) أصالة ابن رشد وأثره فى الفكر اليهودى والمسيحى.

٢٢) قضية المنهج عند الكندى.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣
سؤال الهُويَّـــة... ٧
الهوية (الدلالة والمفهوم): ١٤
تأسيس الهوية بمكة:... ١٥
تأسيس الهُوَّية للدولة بالمدينة:...................................... ٢٠
[١] مفهوم الدولة المدنية:.. ٢٨
[٢] مفهوم الدولة العلمانية:... ٣٠
[٣] الليبرالية: ٣٢
[٤] الديمقراطية: ٣٤
هويات متباينة: ٣٥
المسيحية فى أوروبا:... ٣٧
الدولة الدينية: ٤٠
هويتنا الاعتقادية ٤٩
التوحيد دين جميع الأنبياء: ٥١
أصول العقيدة: ٥١
الإيمان بالغيب:.. ٥٥
الإيمان بالقدر:... ٥٦
الإيمان بجميع الأنبياء وكتبهم:.................................. ٥٨
خصائص العقيدة الإسلامية ٦٣
[أ] عقيدة ربانية: ٦٣
[ب] أنها عقيدة فطرية: ٦٤
[ج] إنها عقيدة وسطية: ٦٦

[د] إنها عقيدة برهانية: ٦٨
[هـ] الشمولية: ٧١
[و] كرامة الإنسان فى حرية الاعتقاد: ٧٤
حاجة الإنسان إلى العقيدة ٧٨
[أ] العقيدة ضرورة اجتماعية: ٧٨
[ب] العقيدة حاجة نفسية: ٨٨
[ج] الوحى حاجة عقلية: ٩٤
هوية الأخـــلاق الإسلامية ١٠٧
١- الإنسان أخلاقى بفطرته: ١٠٧
الفطرة والوحى: ١٠٨
٢- الأخلاق عقيدة ودين ١١٢
٣- الشخصية الأخلاقية فى القرآن: ١١٨
٤- أخلاق الدولة: ١٢٣
٥- خصائص الأخلاق الإسلامية ١٢٥
الجمع بين المادة والروح: ١٢٥
٦- الأخلاق والطبيعة الإنسانية ١٣٤
٧- تهذيب الغرائز: ١٣٦
هوية الفلسفة الإسلامية ١٤١
١- بنية الفلسفة الإسلامية: ١٤٣
٢- ضرورة إعادة القراءة: ١٤٩
الوجود فى الفلسفة الإسلامية: ١٥٠
٣- النظر الفلسفى أمر إلهى: ١٥٢
٤- علاقة الإنسان بالكون (قراءة توحيدية): ١٥٦
٥- تراثنا الفلسفى بين قراءتين: ١٦٢